الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة _ خميس مليانة _

كلية الأداب و اللغات

قسم اللغة العربية و آدابها

مطبوعة مقدمة لإستكمال ملف الأستاذية

إعداد الأستاذة : بلحوالة سهيلة

عنوان المطبوعة

محاضرات في مدخل إلى الأدب المغاربي

للسنة الثانية ليسانس

السداسي الأول

السنة الجامعية : 2022 _ 2023

Scanné avec CamScanner

جامعة خميس مليانة
المجلس العلمي
كلية الآداب و اللغات

المحاضرة الأولى:

الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية النشأة و التطور :

يتميز الأدب المغاربي عموما عن بقية الآداب العربية بخاصية منفردة قلما نجدها تجتمع في أدب العروبة قديما و حديثا. و يتمثل ذلك التمايز في جملة من الخصائص المركبة المعقدة أنبتتها صيرورة تاريخية لا مناص منها تدخلت في تشكيل الأدب المغاربي على مرّ العصور ثلاثة عناصر هي:

العنصر المحلّي و العنصر العربي و العنصر اللاتيني الفرنسي. ثم انصهرت العناصر الثلاثة لغة حضارة عبر التاريخ ثم لبست حلة عربية في مرحلة استرداد السيادة الوطنية في الربع الأخير من القرن العشرين. و إذ نتحدث هنا عن الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية فإن تاريخ الكتابة المغاربية يزخر بأمثلة عديدة من الكتاب الذين كتبوا بلغة غير لغتهم الأصلية، فكتب جلّهم بالفرنسية تقريبا. وقد شكلت الرواية المغاربية ظاهرة ثقافية و لغوية متميزة. منهم من رأوا أنها رواية عربية بالنظر إلى مضامينها الفكرية و الاجتماعية . وكثير من النقاد اعتبروها رواية مغاربية مكتوبة بالفرنسية بالنظر إلى أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي بها يكتسب الأدب هويته.

و قد كانت هذه الكتابات موجهة إلى "الآخر" الفرنسي حيث تريد أن تشعره أن المغاربي قادر على ممارسة فعل الكتابة كظاهرة حضارية.

CS Scanné avec CamScanner

المحاضرة الثانية

مراحل تطور الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية

بما أن الأدب المكتوب بالفرنسية كان النصيب الأوفر فيه للرواية الجزائرية فحري بنا أن نقفأولا عند مسار هذه الأخيرة و التي يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل هامة هي:

1 مرحلة التأسيس : وقد تميزت أعمال هذه المرحلة بواقعيتها الانتقادية و خير من مثلهذه الحقبة نذكر:

أ مولود معمري: هو من مواليد 28/12/1917 بالقبائل الكبرى درس في الجزائر ثم في باريس و حاز على الليسانس في الآداب في أواخر سنة 1962. عاد إلى الجزائر ليدرس في جامعتها. و قد ركز الكاتب في رواياته على المجتمع القبائلي ليجسد مأساة الشعب الجزائري عامة

فقد حاول في روايته "الهضبة المنسية" التي ألفها عام 1952 تجسيد عادات و تقاليد المجتمع البربري كمل صور الحرب التي تفرق بين الأحباب و البشر و ترهن الجماهير في البؤس و العوز. كما كتب "الأفيون و العصا" عام 1965.

ب _مولود فرعون ولد عام 1913 بالقبائل صور في إنتاجه كله الحياة في قرى و مداشر القبائل من عادات و تقاليد ومعاناة نتيجة الاستعمار . أول عمل أنتجه هو روايته "ابن الفقير" و هي رواية تعكس حياته الشخصية نظرا لكونه ابن فلاح فقير.

ثم كتب "الأرض و الدم" عام 1953. عذب و اضطهد إلى أن قتل على يد منظمة الجيش السري الفرنسي عام1962.

2/ مرحلة التأسيس: ظهرت في هذه المرحلة أعمال كثيرة جسدت الأبعاد النضالية و الثورية بالموازاة مع الحالة الاجتماعية المزرية التي كان يعاني منها الشعب الجزائري. و خير من مثل هذه المرحلة نذكر:

أ/ محمد ديب: ولد في تلمسان عام 1920 ، اشتغل مدرسا ثم محاسبا ثم عامل نسيج.

كتب ثلاثيته الشهيرة :" الدار الكبيرة" و "الحريق" و "مهنة النسيج". تعكس رواياته واقعالشعب الجزائري بكل تفاصيله و قد قال عنه المفكر الجزائري "محمد أركون" : " مذكراتالشعب الجزائري بل إن المكتبة الوطنية للجزائر هي محمد ديب".

ب كاتب ياسين: يعد من أبرز الشعراء و الكتاب الذين عبروا بصدق و عمق عن فترةقاسية من حياة الشعب كما عبّر عن حقيقة مأساة الشعب الجزائري و وصف بشاعة حرب الإبادة و عذابات السجون. وقد ولد كاتب ياسين عام 1929 بقسنطينة

، تعلم اللغة الفرنسيةمرغما كما كان كل الجزائريين آنذاك في المدارس الفرنسية و قد شهد مجازر 8 ماي 1945 بسطيف ما جعله يحقد أكثر على الاستعمار الفرنسي و يفضح ممارساته في أعماله الروائية. من أشهر ما كتب: رواية "نجمة " عام 1956 ، و هي رمز للجزائر الجميلة التي مزقتها مآسي و آلام حرب التحرير، و هذه القصة هي صورة للآمال و الأحلام المفقودة.

3 مرحلة أدب المقاومة: في هذه المرحلة الممتدة بين سنة 1958 إلى سنة 1962 تبلور أدب المقاومة و أصبح مفهوم الشهادة في سبيل تحرير الوطن مقدسا و صار الكل يحلم بالاستقلال و الحرية و خير من مثل هذه المرحلة:

أ/مالك حداد ولد عام 1927 بقسنطينة، يعد من بين الأدباء الذين كرسوا أقلامهم و فنهم لبلادهم و قضيتها العادلة فمنذ عام 1958 إلى 1961 كان يكتب بمعدل رواية كل عامو هي على الترتيب:

الانطباع الأخير 1958

-سأهديك غزالا: 1959

التلميذ و الدرس: 1960

- رصيف الأزهار لم يعد يجيب:1961

كما أصدر في السنة نفسها مجموعة شعرية اسمها : "استمع إلى ندائي"

قد كان يحز في نفس مالك حداد أنّه يجهل اللغة العربية كما كان يشعر بالغربة لأنه لا يكتب إلا بالفرنسية لغة المستعمر. و في ملتقى اتحاد كتاب العرب شاهد الدكتور الناقد "عبد الله ركيبي" مالك حداد و معه طفل صغير يتحدث بالفصحى فسأله ركيبي من هذا؟ فأجاب مالك حداد قائلا:" هذا انتقامي من الفرنسية ، إنّه ولدي". حتى إنّه في محاضرة ألقاها في دمشق عام 1961 قال: " تفصلني اللغة الفرنسية عن الجزائر أكثر مما تفصلني الجبال و المحيطات. نحن كتاب منفيون في اللغة الفرنسية".

ب_ آسيا جبار ولدت عام 1936 بشرشال ، أسلوبها في الكتابة يشبه كثيرا أسلوب مالك حداد. من أبرز رواياتها : " العطش" عام 1957 و "بعيدا عن "المدينة" و "أبناء العالم الجديد".

شاركت في حرب التحرير و كانت أول فتاة جزائرية تدرس التاريخ في جامعة باريس. اسمها الحقيقي هو "فاطمة الزهراء إيملاني". كانت تدرّس في مركز الدراسات الفرنسية و الفرنكوفونية في ولاية "لويزيانا" الأمريكية. حصلت سنة 2000 على جائزة السلام الألمانية. آخر رواية صدرت " امرأة بلا قبر" ، توفيت في 2015.

أما الرواية المغربية الناطقة بالفرنسية فقد كانت الانطلاقة الأولى فيها مع "إدريس الشريبي" بروايته "الماضي البسيط الصادرة عام 1954 و التي يروي فيها تمرّد شاب مغربي مراهق ينتمي

إلى عائلة تقليدية على السلطة الأبوية التي تمارس القهر على البنات و تمنعهن من التعليم و الميراث. خاصة أن هذا الشاب يعيش حالة من الصراع و التمزق بين عالمين مختلفين كلية هماوعالم التقاليد المغربية البالية و الثقافة الفرنسية التي تلقى في مدارسها تعليمه و تكوينه. فيما يتعلق بالرواية التونسية فإن " ألبير ممي" كان سبّاقا لكتابة الرواية بالفرنسية. و قد عكس في كتاباته الصراع القائم بين المستعمر و المستعمر والاضطهاد الذي دفعه للكتابة عن مآسي الاستعمار خاصة في روايته "تمثال" الملح". كما كتب محمود المسعدي" ما أسماه بالأخبار الأدبية منشورا في الجرائد الناطقة بالفرنسية في تونس ثم بعد ذلك جمعها في رواية أعاد كتابتها بالعربية عنونها " حدث أبو هريرة قال..".

المحاضرة الثالثة

نماذج عن الكتابات المؤلفة باللغة الفرنسية:

محمد ديب:

محمد ديب (21 يوليو 1920 – 2 مايو 2003) كاتب و أديب جزائري ولد في تلمسان غرب الجزائر . كان مولد محمد ديب الأدبي عام 1952 حين صدرت له أول رواية وهي رواية "البيت الكبير" ، وقد نشرتها جريدة "لوسوي" الفرنسية، ونفذت طبعتها الأولى بعد شهر واحد ، ثم رواية "الحريق" التي تعلن إرهاصات الثورة الجزائرية. والغريب في الأمر أنه بعد ثلاثة أشهر من نشرها انطلقت ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 في الجزائر . نال محمد ديب عام 1963 جائزة الدولة التقديرية للآداب كذلك كان أول كاتب مغاربي يحصل على جائزة الفرنكوفونية، وذلك عام 1994 حيث تسلمها من الأكاديمية الفرنسية تنويها بأعماله السردية والشعرية. توفي الأديب محمد ديب في 2 مايو 2003 بسان كلو إحدى ضواحي باريس في فرنسا .

يعد محمد ديب أحد أبرز الروائيين والشعراء الجزائريين المعاصرين، وقد كتب جميع مؤلفاته باللغة الفرنسية، فأثار بذلك مسألة هوية وانتماء هذا الأدب. هل هو أدب عربي، لأن موضوعاته عربية ويعالجها المؤلف من منطلق وطني عربي، أم أنه أدب فرنسي، لأنه مكتوب باللغة الفرنسية، وبأسلوب تجديدي متميز، جعل الشاعر

الفرنسي لوي أراگون يمدح شعرية لغة ديب، ودفع الأكاديمية الفرنسية إلى منحه جائزة الفرنكوفونية في عام 1982.

ولد محمد ديب في مدينة تلمسان الواقعة غربي العاصمة، وانتسب هناك إلى المدرسة الابتدائية، ثم انتقل إلى مدينة وجدة حيث تابع دراسته الثانوية. وكان في الحادية عشرة من عمره عندما توفي والده الذي امتهن النجارة، فاضطر محمد اليافع للبحث عن عمل، وتنقل بين عدة مهن، فعمل نساجاً على النول ومحاسباً ومراسلاً صحفياً. وفي الجزائر العاصمة انتظم في سلك التدريس وبُعث إلى قرية على الحدود الجزائرية المغربية، حيث علّم أبناء البدو، مما أدى إلى إعفائه من التجنيد. وقد هيأت له ممارسة هذه الأعمال تعرف الفئات الشعبية وأساليب معيشتها وتفكيرها ونضالها من أجل القوت والحرية. كما احتك بالمناضلين الجزائريين المطالبين باستقلال الجزائر عن فرنسا، وأخذ يكتب في الصحافة المحلية الصادرة باللغة الفرنسية حول قضايا وطنه، لاسيما في صحيفة «ألجيه رِبوبليكان» Alger Républicain، مما لفت إليه أنظار السلطات الاستعمارية، التي بدأت تضيّق عليه الخناق. وكان ديب حينذاك قد كرَّس جل وقته واهتمامه للأدب، ولكنه، نتيجة لسياسة الفَرْنَسة، لم يمتلك ناصية اللغة العربية الفصحى قراءةً وكتابةً، فقد كانت لغة المستعمر الفرنسية نافذته الوحيدة للاطلاع على الأدب العالمي عامة والفرنسي خاصة. فعندما نشر قصيدته الأولى «فيغا» Vega عام (1947) بدا واضحاً تأثره بالثقافة الفرنسية، وتمكنه في الوقت

ذاته من أدواته التعبيرية كشاعر ذي خصوصية. ومع أنه قد نشر في سنوات المنفى في فرنسا ستة دواوين شعرية لفتت أنظار الأدباء والنقاد، إلا أن إنتاجه الروائي الذي تجاوز العشرين رواية، كان أكثر انتشاراً وتأثيراً، وأطوع للترجمة من شعره الذي بقي محصوراً في دائرة هواة الشعر.

منذ عام 1945 أخذ ديب يعيش متنقلاً بين الجزائر وباريس، وفي عام 1951 تزوج من سيدة فرنسية وعاد إلى حياته النضالية في الجزائر إلى أن نفته السلطات نهائياً في عام 1959 بسبب تصاعد تأثيره في حركة التحرير. وكان منذ عام 1952 قد بدأ بنشر أجزاء «ثلاثية الجزائر» الملحمية، فصدر الجزء الأول «الدار الكبيرة» La grande maison عام (1952)، والثاني «الحريق» L'Incendie عام (1954)، والثالث «النول» Le métiere à tisser عام (1954) التي ترجمها سامي الدروبي بأسلوب مبدع، وصدرت طبعتها الأولى في القاهرة (1970)، تلتها طبعات أخرى في بيروت ودمشق. وبهذه الثلاثية جعل ديب من الكتابة بالفرنسية كتابة وطنية، وباتت فيها صورة الوطن الجزائر كبيرة وواضحة، وهي تخرج من حرب إلى حرب أشد ضراوة، جعلت شخصيات الرواية تؤسس قناعاتها النضالية، ليس فقط انطلاقاً من خيارات ظرفية، ولكن من صلب التجربة الإنسانية التي لا حدود لقوتها.

ونتيجة لتحولات الثورة الجزائرية بعد الاستقلال وما آلت إليه، محققة مقولة «الثورة تفترس أبناءها» قرر محمد ديب البقاء في المنفى الذي لم يعد حالة ثقافية، بل حالة

وجدانية ومأساة، لم تعمل كتاباته اللاحقة إلا على تأكيدها. ففي روايته «هابيل» Abel عام (1977) لا يقتل الأخ أخاه، حسبما ورد في الحكاية القديمة، لكنه يدفع به نحو مغاور المنفى والعزلة والموت، لئلا تلصق الجريمة بأحد. وفي النسق نفسه تسير رواية «من يذكر البحر؟» Qui se souvient de la mer عام (1962) و«مسيرة على الضفة الموحشة» (1964) و«معلم الصيد» le Maître de chasse عام (1973) وغيرها من الروايات التي رسمت الخيبة وأعطتها هوية الانكسار والمنفى.

وفي عقد الثمانينات انسحب محمد ديب باتجاه الشمال، نحو اسكندنافيا، بحثاً عن أرض محايدة، إذ لم تعد الرواية النضالية والسياسية هاجسه، وحل محلها انشغال بهموم الذات بمختلف جروحها وانكساراتها، وكتب هناك ثلاثية جديدة سماها النقاد «ثلاثية الشمال»، وهي تضم «شرفات أورْسول» Terrasses d'Orsol عام (1985) و«إغفاءة حواء» (1989) و«ثلوج من مرمر» (1990)، وأتبعها برواية «فقر بلا هوادة» (1991). وفي أعمال هذه المرحلة برزت حساسية ديب الصوفية وأخذت أسئلته الوجودية تهتم بأدبية وفنية الكتابة، بعيداً عن الهم السياسي.

ومع مطلع التسعينات عاد ديب إلى باريس وعاد إلى الانشغال بأسئلة الديمقراطية في وطنه الجزائر، واستمر في الكتابة، فأصدر «المولود الموريسكي» و«الليلة الموحشة» و«إن شاء الشيطان» و«سيمورگ» وفي معظم هذه النصوص ينتفي الشكل الروائي،

أو يكاد، ولا يبقى منه سوى بعض الملامح داخل مزيج من الأشكال يتداخل فيها الشعر والنقد والمسرح والقصة، بأسلوب يعيد النظر في المكونات الثقافية للرواية ويفككها بدءاً من الأنا وانتهاء بمقولة انتحار أوديب وصعوده متلاشياً. كان محمد ديب بدوره يتلاشى في هذه الكتابات عائداً إلى تربة منحته المنفى وفرصة التأليف.

يعد محمد ديب إلى جانب مولود فرعون ومولود معمري ومالك حداد وكاتب ياسين من مؤسسي الحركة الأدبية الفرنكوفونية في الجزائر، وقد يكون مع كاتب ياسين في طليعة هذا الجيل الذي استطاع أن يتحدى الاستعمار الفرنسي عبر لغته نفسها، وأن يكتب أدباً جديداً، فرنسي اللغة، جزائري الروح والهموم. وهو يقول بهذا الصدد: «يُهيأ إلينا أن ثمة عقداً يربطنا بشعبنا، ويمكننا أن نسمي أنفسنا (كتّابَه العامّين). نحو هذا الشعب نلتفت أولاً، ثم نلتفت نحو العالم، لنشهد على هذه الخصوصية، ولكن أيضاً، لنشير كم أن هذه الخصوصية تندرج في ما هو كوني».

مات محمد ديب في صمت كبير، كما عاش في شموخ كبير، ودُفن في إحدى ضواحي باريس بوجود حفنة من الأصدقاء المقربين، حسب وصيته، ودونما ضجة رسمية مزيفة. وتُرجمت معظم رواياته إلى اللغات الأوربية وبعض اللغات الشرقية.

المحاضرة الرابعة

أعمال محمد ديب بين واقع المجتمع و إبرازالهوية الجزائرية :

لقد استطاع محمد ديب, أحد رواد الأدب الجزائري باللغة الفرنسية, ان يغوص بقلمه في يوميات الشعب الجزائري, الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار, و ذلك بغرض ابراز الهوية الوطنية من خلال اقحامها في المجال الادبي, و اعطائها "حضورا" في ثلاثيته الروائية الاولى التي صدرت قبل الثورة التحريرية و إبانها.

لقد سعى الاديب مؤلف "الدار الكبيرة", الرواية الاشهر الصادرة في سنة 1952, الى التأكيد على "الوجود" الجزائري الذي همشه النظام الاستعماري و جهله و جعله مجرد "مجموعة اهالي مستعمرين دون حضارة".

لقد ولد هذا الروائي المبدع عالم الكتابة الادبية عبر نشره لسلسلة من الاعمال سيما "الدار الكبيرة" سنة 1952 و "الحريق" سنة 1954, و "النول" سنة 1957, وهي الثلاثية التي مكنته من سبر اغوار حياة الجزائريين المهمشين و المثقلين بماسي الفقر و البؤس و افات الاستعمار.

في هذا الصدد، كان محمد ديب قد صرح في حديث لإحدى المجلات الادبية بان كتابات بعض الادباء الفرنسيين كانت تحمل نظرة خاصة حول الجزائر و هي نظرة

"لا معنى لها و لا تعكس الواقع" بالنسبة لعديد الجزائريين مثله, مضيفا "انني ككاتب جزائري, شعرت بحاجتي و واجبي لكتابة هذا الواقع و سرده".

لقد قام محمد ديب على غرار كتاب جيله, من امثال مولود معمري و مولود فرعون و لاحقا كاتب ياسين, بوصف و ادانة النظام الاستعماري لإنكاره لهذا الشعب المستعمر و المهمش و المبتلى بالجوع و البؤس و الامية و الحرمان.

ووعيا منه بالدور الذي يمكن للأدب ان يلعبه كسلاح للنضال, اشار محمد ديب الى "انه كان يكفي في تلك الحقبة ان تصف مشهدا جزائريا لكي تتحلى بالثقة و تثبت الجزائر وجودها الادبي".

في هذا الاطار, تعتبر الجامعية, نجاة خدة, المختصة في الادب الجزائري, ان محمد ديب يعد من بين الكتاب الذين عملوا, عبر الابداع الادبي, على "تشكيل هوية جزائرية".

و قد مارس محمد ديب المولود في 21 يوليو 1920 بتلمسان, عديد المهن, سيما معلم و محاسب و رسام و صانع زرابي، و نشر قصيدته "صيف" في سنة 1946 على صفحات المجلة السويسرية "لاتر" (أدب) لتتبعها في سنة 1947, قصيدة "فيغا" في مجلة "فورج" التي كان يديرها بالجزائر الكاتب الفرنسي ايمانويل روبلس.

و في سنة 1948, تعرف خلال لقاء نظمته حركة الشبيبة الفرنسية للتربية الشعبية بالبليدة, على كل من البير كامو وجان سيناك وجان كايرول الذي دعمه لإصدار اولى رواياته في فرنسا.

و عند صدور روايته "الدار الكبيرة" في سنة 1952, كان ديب يعمل كصحفي بجريدة "الجزائر الجمهورية", و كان احد زملائه حينها, ذلك الذي سيصبح الكاتب الكبير ومؤلف "نجمة", كاتب ياسين.

و بعد اصداره لمجموعته القصصية "في المقهى" (1955) و رواية "صيف افريقي" (1959) و حكايا الاطفال "بابا فكران" (1959), شرع محمد ديب في كتابة سلسلة رواياته مع "رقصة الملك" (1968) و "اله وسط الوحشية" (1970) و "سيد القنص" (1973), و هي اعمال مستوحاه من الواقع المعاش للمجتمع الجزائري لما بعد الاستقلال.

كما زادت شعبية و مكانة الكاتب لدى الجمهور, بعد تحويل ابداعاته الادبية الى اعمال تلفزيونية, سيما منها "الدار الكبيرة" و "الحريق", في شكل مسلسل تلفزيوني, تولى اخراجه مصطفى بديع في سنة 1972.

و قد زاول محمد ديب في تلك المرحلة, مهنة التعليم بالولايات المتحدة كما كان يتردد بانتظام على فنلندا للقيام بأعمال في مجال الترجمة لكتاب من البلدان الاسكندنافية,

حيث اثمرت هذه الرحلات على "ثلاثية الشمال" التي صدرت ابتداء من سنة 1989, سيما منها "شرفات أورسول" و "ثلوج من رخام" و "اغفاء حواء".

و ما فتئ رصيده الادبي يزداد, سيما من خلال نصوص مسرحية مثل "الف صيحة لمومس" التي عرضت في مهرجان مسرح افينيون في فرنسا, او السرد الشعري الموسوم ب"فجر اسماعيل" (1996) الذي حول مؤخرا الى عمل مسرحي.

و قد ترك محمد ديب الذي وافته المنية في سنة 2003, عن عمر ناهز 82 سنة, رصيدا ادبيا هاما, اعتبر "الاكبر" ضمن الاعمال الادبية الجزائرية باللغة الفرنسية.

و منذ 2001, تم استحداث جائزة ادبية تحمل اسم محمد ديب, و ذلك بمبادرة من الجمعية الثقافية "الدار الكبيرة" بموافقة من الكاتب خلال حياته, من اجل ترقية اعماله سيما عبر تنظيم ورشات للكتابة و التأليف و المسرح و السينما.

و بمناسبة مئوية ميلاده, قامت دار النشر الجزائرية "البرزخ" في 2020, بإعادة نشر طبعة منقحة و موسعة لعمل "تلمسان او اماكن الكتابة", الذي تضمن تأملات الكاتب حول حياته منذ الطفولة و بداياته الادبية و حول فعل الكتابة و طبيعتها احتوت "صورة نادرة لم يسبق نشرها كان قد التقطها ديب بشكل عفوي عام 1946 بالإضافة الى نصوص مستوحاة من الصور الفوتوغرافية للكتاب.

التطبيق الأول:

المسار الروائي لمحمد ديب:

كتب محمد ديب في فنون أدبية متنوعة كالرواية والقصة والمسرحية والشعر والمقالة. وكان أن صار من أهم الكتاب العالميين بفضل هذه الأعمال وخاصة منها الروائية.

حين شرع محمد ديب في كتابة الرواية كانت الجزائر تمر بأقسى مراحلها التاريخية وهي مرحلة الاستعمار الفرنسي. وفي خضم هذه الظروف كان لا بد من الكتابة لأجل إيصال صوت الجزائر إلى المستعمر ولو كان ذلك بلغته. وهكذا كانت مرحلة الخمسينات تصويرا لآلام الشعب الجزائري وقسوة الاستعمار، فقد رسم ديب هذه الفترة في رواياته الأولى التي جاءت تحت اسم الثلاثية وهي: الدار الكبيرة والحريق والنول.

الدار الكبيرة(La grande maison) :

تُعتبر الرواية الأولى للكاتب، صدرت عن دار لو ساي (Le seuil) عام 1952. وقد أشار الكاتب إلى صعوبة النشر في تلك الفترة الحرجة إذ يقول:" لم يكن ممكنا آنذاك للشباب الجزائري هواة الأدب أن ينشروا كتبا فكان ذلك عالما محرما. وهذا لا يرجع لكوني كاتبا ناشئا بل لكوني جزائريا". والدار الكبيرة هي الجزء الأول من ثلاثية الجزائر وتتناول مجموعة أحداث تدور في دار سبيطار وهي دار كبيرة بمدينة تلمسان

تسكنها مجموعة من العائلات الفقيرة، وهذه الدار قد استعملت كمستشفى خلال الحرب العالمية الأولى. وفي هذه الدار تسكن عيني الأرملة التي تتكفل بعائلتها المكونة من عمر الصبي وأختيه عويشة ومريم ووالدتها المقعدة. وعمر هو بطل الثلاثية التي تتناول البؤس الذي تعانيه فئات الشعب الجزائري إبان هذه الفترة. ونلتقي بالبطل الثوري حميد سراج الذي يمثل البدايات الأولى للتفكير الثوري. وتدور أحداثها بين 1933-1939.

تتحدث الرواية عن مجمع سكني "دار سبيطار" الذي يضم مجموعة كبيرة من السكان معظمهم من الفقراء الذي لا يجدون قوت يومهم، وضمن هذا التجمع تدور أحداث الرواية الدار الكبيرة" بطل الرواية الطفل عمر الذي لا يتجاوز الاثني عشر عاما، وأمه عيني التي تكافح لكي تطعم ولدها وابنتاها، يتناول الكاتب أوضاع المجتمع الجزائري من خلال تناول الأشخاص في هذا المجمع السكني وكيف كانوا يعيشون ويفكرون ويتعاملون مع بعضهم البعض، واقع الاستعمار الاستيطاني شديد الوطأة على الشعب، حيث أن هذا الاستعمار يتعامل مع المواطنين بطريقة الغائية ودونية

من هنا تكون المشاعر الوطنية حية لكنها لا تظهر علانية، وذلك بسبب القسوة التي يعامل بها المحتل المواطنين، فها هو الأستاذ حسن يتخطى حاجز المحذور ويتكلم للطلاب بالعربية المحذورة، موضحا لهم بان وطنهم ليس فرنسا "- ليس صحيحا ما يقال لكم من أن فرنسا هي وطنكم" ص25، مثل هذه الكلمات كانت تكلف الإنسان

وظيفته وأيضا الاعتقال والتعذيب على يد أشرس احتلال "الاستيطاني" من هنا نجد المعلم يشعر بأنه أقدم على شيء خطير جدا، ويظهر هذا عليه " وسيطر على الأستاذ حسن على نفسه. ولكنه ظل يبدو مضطربا خلال بضع دقائق. كان يلوح عليه انه يهم بان يقول شيئا آخر أيضا. لكن ما عساه يقول ... أليس ثمة قوة أكبر منه تمنعه من أن يقول ما يريد قوله.

وهكذا لم يعلم الصبية ما هو وطنهم" ص 25، الصراع بين قول الحقيقة والصمت كان يشكل هاجسا عند المعلم من هنا قال شيئا ولم يجرؤ على إكماله

وهذه مسألة في غاية الخطورة، لكن القليل الذي قدمه للطلاب جعلهم يعيدوا التفكير فيما يدرس لهم، وهذا كافا، إذا ما أضيف له المعاملة السيئة التي يتلقها المواطنون من المحتل. فهنا طرح الكاتب بان الأستاذ حسن إنسان يشعر بالخوف وأيضا بالرغبة في التحرر من قبضة الاحتلال وتعاليمه المزيفة، فشخصيات الرواية هي بشرية وليست (سوبر) وهذا ما جعلها اقرب إلى الواقعية، فالرواية هي واقعية بامتياز، لا يوجد فيها إي رمزية ، كما أن أحداثها اقرب إلى الوقائع التاريخية، التي عانىمنها الشعب الجزائري.

الرجل السلبي:

الكاتب قدم لنا صورة الرجل السلبي، فمن خلال حديث النساء العاملات

والمكافحات في سبيل لقمة العيش عن الرجال كان يصفهم بشكل شبة دائم بالتخاذل والتقاعس وعدم الأقدم على العمل، فها هي "عيني" تتحدث لولدها عمر عن والده بصورة تحمل القهر والبؤس، ليس على الوالد وحسب بل على الأوضاع والاستعمار أيضا " هذا كل ما تركه لنا أبوك ذلك الرجل لا يصلح لشيء. ترك لنا البؤس، غيب وجهه في التراب وسقطت علي جميع أنواع الشقاء. هو الآن هادئ في قبره.. لم يفكر يوما في ادخار قرش واحد.. وها انتم تتشبثون بي كالعلق الذي يمتص الدم لقد كنت غبية .. كان ينبغي أن أترككم في الشارع، أن اهرب إلى جبلخال مقفر" ص30، من خلال هذا الكلام نستدل على الحالة المزرية التي تعيشها العائلة، فلا معيل لها سوى المرأة هي من يوفر الاحتياجات لها، ورغم تواضع هذه المتطلبات وقلتها إلا أن من يستطيع في ظل الاحتلال أن يجلب رغيف الخبز يكون قد أنجز أمرا عظيما.

لم تكن الأم "عيني" تكلم ولدها بهذه الكيفية فقط، بل أيضا تكلمت مع أمها "الجدة" بطريقة أشد وأكثر قسوة، وكأنها ليست ابنتها، بل امرأة من خارج العائلة، "كانت عيني منتصبة على ركبتيها تقذف حقدها في وجه الجدة..

– ليت الموت يأخذك لماذا لم ترفضي أن يحملوك إلى هنا؟

– ماذا كان بوسعي أن افعله يا ابنتي؟

امرأته هي التي أرسلتك إلي انه مستعد لان يلعق قدميها، أنها هي من تعمل لتطعمه، أما هو فيقضي وقته في التسكع بين المقاهي .. ابن الكلب .. " ص 31. صورة أخرى عن الرجل المتعالي على زوجته القاعد مع القاعدين، بلا عمل أو فعل مفيد، يترك زوجته تعمل. "عيني" تتناول الرجال – الزوج والأخ . بسلبية، وكأن الرجال في المجتمع الجزائري إبان الاحتلال لم يكونوا يصلحوا إلا للجنس فقط، فهم كسالى أتكالين لا يعملون.

ومع هذا الواقع غير السوي تحمل "عيني" أفكار المجتمع الذكوري بامتياز، فهي كامرأة شرقية تفكر بان السيادة يجب أن تكون للرجل، رغم أن الواقع يفند هذه الأفكار، فمن خلال زوجها الذي مات دون أن يترك لها قرشا واحد، إلى أخاها القاعد والمتواكل على زوجته إلى رجال المجمع السكني، الذين لا يصلحون لشيء، ومع كل السلبيات تفكر بالرجل القادم ابنها عمر، "متى يكبر عمر ابنها فيحمل عنها بعض هذا العبء؟ البنت لا يمكن الاعتماد عليها وإنما يجب إطعامها حتى إذا شبت عن الطوق أصبح واجبا أن نراقبها مراقبة دقيقة فهي في سن البلوغ أسوأ من حية، فما أن تغفلي عنها قليلا حتى ترتكب الحماقات. ثم لا بد لك أن تقصدي عروقك حتى تهيئي لها جهازا قبل أن تتخلصي منها" ص 72، رغم أن أبطال الرواية من نساء، إلا أن السرد يؤكد بأن أفكار المجتمع الذكوري الأبوي هي المسيطرة، فهل هذا

مقصود من الكاتب؟ أم انه وقع في خلط – السرد . ولم ينتبه لا إن المتحدث امرأة، فكان لا بد من أن تحمل أفكارها وليس أفكار المجتمع؟

اعتقد بان الرواية الواقعية ترسم الواقع كما هو مع إضافة التحسينات والصور الأدبية والفنية من هنا كان الكاتب يصر على إعطائنا صورة واقعية عن المجتمع الجزائري والطريقة التي يفكر بها، فهنا كانت المرأة ليست أكثر من منتجة. لا لكنها غير متحررة فكريا من هنا وجدنها أسيرة المجتمع وأفكاره.

الطفل في ظل الاحتلال والجوع:

الأطفال في ظل الاحتلال يكون أكثر من غيرهم عرضة للقمع والسوء المعاملة، إن كانت من المحتل نفسه أم من الأهل الذين يعتبرون أطفالهم المتنفس لهم. فتنعكس حالة القمع التي يعانون منها في سلوكهم مع أطفالهم، فنجدهم يفرغون كل الكبت والقهر على هؤلاء الأطفال، وكأنهم – الأطفال – هم من يقوم بقمع الأهل وليس الآخر المحتل كما إن الأطفال بطبيعتهم البسيطة يرفضون القمع والاضطهاد مهما كان فاعله وأيا كانت دافعه من هنا يقوم عمر بالتمرد على حالة القمع التي تمارسها أمه "عيني" على الجدة فيثور عليها قولا وفعلا، متجاهلا

بان من يثور عليها هي أمه وهرب. فأسرعت تركض وراءه، لكنه اجتاز فناء البيت بوثبة واحدة.. – اخرسي يا ... عاهرة

يلعن أبوك يا ملعونة تلعن أمك.." ص 33 . اعتقد بان حالة الاجتماعية والاقتصادية وما تشكله من أفكار ومفاهيم عند الأفراد مسألة تلعب دورا حيويا في السلوك، فعمر الذي يعاني الجوع والقهر والفقر وفقدان الأب، لا بد أن يكون بهذه القسوة اتجاه أمه، فهي من خلال معاملتها القاسية للجدة جعلت مشاعر ابنها عمر تتأجج، فهي لم تكن ضد الأم ولكنها ضد سلوكها السيئ.

فبعد أن يغادر البيت تبدأ مشاعر الطفولة تتحرك فيه، ويأخذ في طرح النواقص التي يعاني منها كانسان وكطفل كان في تلك اللحظات يتمنى لو يعثر على أبيه، أبيه الميت ولكن الحقيقة التي اكتشفها كانت لا تطاق، أن أباه لن يعود أبدا أليه، ما من احد يستطيع أن يرد إليه أباه ص33 حالة الطفل في الحضيض. فكريا وواقعيا بلا مأوى، جوع، برد الخوف من القمع والضرب الحرمان من الأب، كلها تجتمع في حالة عمر، فهو هنا لا يشكل حالة الطفل العادي، بل الطفل غير العادي، الطفل الذي يعيش في ظل الاحتلال والواقع الاجتماعي المتخلف والفقير في ذات الوقت.

صورة الشرطي

لعل الكثير من الأعمال الأدبية، إن كانت رواية أو قصة أو مسرحية أو قصيدة. في مجملها تقدم الصورة السلبية لرجال الشرطة فهم باستمرار يشكلون أداة القمع والبطش التي تعمل بالناس الشر والقهر وأقولها بتواضع بأنني لم اقرأ نصا يحمد هؤلاء القساة أبدا من هنا سنجد حالة طبيعية أن يقدم رجال الشرطة في ظل الاحتلال بصورة سلبية، فها هو الطفل عمر يصاب بالرعب لمجرد أن ذكروا "– الشرطة الشرطة .. ها هم الشرطة..

وقال بينه وبين نفسه: "ماما" أتوسل إليك، لن أضائقك بعد الآن، احميني، احميني.. تمنى في عنف وحرارة أن تكون أمه "عيني" إلى جانبه" ص38، حالة من الرعب يعاني منها عمر، فهنا الطفل يعكس لنا صورة الرعب التي أوجدوها رجال الشرطة في ذهنه، فهم من خلال سلوكهم القاسي تركوا هذا الإرهاب في الأطفال والمجتمع ككل، "أن رجال الشرطة ينبشون الأوراق التي كان حميد سراج قد جمعها عند أخته.

كانوا يجمعون هذه الأوراق، ومن اجل ذلك قلبوا الغرفة عاليها سافلها" ص42، هكذا هم رجال الشرطة، أداة التخريب والتكسير والتحطيم ويقومون بضرب الناس واعتقالهم، من هنا لا يوجد لهم لا الصورة السلبية خاصة في المجتمعات التي تعاني من الاحتلال والتخلف.

فاطمة أخت عمر :

وها هي حميد سراج تقول متحسرة على أخيها، الذي سيكون تحت التعذيب الجسدي والنفسي عند المحتل ويلي عليك يا أخي .. ما الذي سيقع ما الذي سيصنعونه بك؟ .. ويلي عليك يا أخي .." ص42. أعمال القمع والاعتقال تترك أثرا بليغا في الشخص المعتقل وزوجته وأبنائه وجيرانه وكل من يشاهد عملية الاعتقال من هنا تركت هذه العملية أثرا لا يمحى من ذاكرة الطفل الذي يمثل خلية نشطة تتأثر . سلبا أو إيجابا . بكل ما يشاهد ويسمع. "كان عمر حائرا لا يعرف كيف يمكن أن يقدم معونة ما رجال الشرطة يملأون الدار الكبيرة بحركتهم. ترى متى يذهبون... أصبح عمر لا يطلب قطعة الخبز مغموسة في الماء العين، حين تنصب علينا الكوارث، نذهل عن الجوع، أصبح عمر لا يفكر، لقد تضامن جوعه – أصبح جوعه الآن بعيدا لم يبقى منه فيه إلا ما يشبه غثيانا غامضا لا يهدأ .

أصابه دوار كان يمضغ لعابه ويبلعه، أن هذا يولد في نفسه ميلا غريبا إلى القيء، انه لا يجد في نفسه إلا فراغا" ص 42 و43 حالة الغثيان تصيب المحبط الخائف غير القادر على الفعل مهما كان هذا فعل، عمل أو قول.

شدة القمع والقهر والخوف تسبب حالة الغثيان ذروة الخوف تقع ليس على المعتقل وإنما من شاهد عملية الاعتقال، فما بالنا بأهل المعتقل والمعتقل نفسه!منالطرح الطبقيفي حالة الاحتلال لا بد أن يكون هناك الجوع والفقر هو الطاغي على

المجتمع. هنا لا بد من وجود من يقدم البديل لها الوضع البديل الذي يبحث في تقديم الحياة الكريمة للمواطن، وتحقيق سبل العيش التي تمثل ابسط الحقوق للإنسان "إن العمال الزراعيين أصبحوا لا يستطيعون أن يعيشوا بهذه الأجور الزهيدة التي يتقاضونها . يجب أن نتخلص من هذا البؤس .. العمال الزراعيون هم أولى ضحايا الاستغلال الذي يعبث في بلادنا فسادا" ص94. المسألة الاقتصادية من أهم المسائل التي تشغل

الأفراد والجماعات من هنا قدمها محمد ديب بكل وضوح إن كان من خلال السرد الروائي الذي يعطي مدلولا واضحا عن الحالة الاقتصادية البائسة أم من خلال كلمات الخطيب الذي تحدث بكل صراحة عن الواقع المزري ;

فكرة الخلاص "القادم من الخارج ":

عند العديد من المجتمعات التي تعاني القهر تفكر بطريقة غير سوية، فهي تتجاهل دورها في تحرير ذاتها، وتنتظر القادم من الخارج كي يخلصها مما هي فيه، فهناك فكرة يتداولها بعض الفلسطينيين بان خلاصهم سيكون من جهة الشرق، أن هذا الأمة ويقتل الأعور الدجال، فهنا نجد دعوة بطريقة غير مباشر

المخلص سيجمع للانتظار والترقب لقدوم هذا المخلصوهذا ما فعله الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي فهم تشبثوا بالقادم الخارجي وجعلوا منه مخلصا "إن هذا الرجل الذي اسمه هتلر قوي قوة هائلة لا يستطيع أحد أن يقيس نفسه بقوته، هو ماض يستولي على العالم كله، وسيكون ملك العالم كله، وهذا الرجل يبلغ هذا المبلغ من القوة صديق للمسلمين فمتى وصل إلى شواطئ هذه البلاد أدرك المسلمون كل ما يتمنون، وحظوا بسعادة كبرى،

انه سيحرم اليهود من أملاكهم، فهو لا يحبهم، ولسوف يقتلهم، سيكون حامي الإسلام، وسيطرد الفرنسيين، ثم أن الحزام الذي يشد جسمه قد كتب عليه :لا اله إلا الله محمد رسول الله ص136 التخلف لا يقدم إلا الأفكار المتخلفة، في هذا المشهد الذي تكرر في العراق والسودان واليمن وليبيا وسوريا وكل من راهن على المحرر الخارجي، لا ندري لماذا نجن في المنطقة العربية دائما كنا نتعاطى مع مسألة الخلاص من الظلم أو الاحتلال بالخارج وليس فينا نجن؟ هل تركيبتنا الفكرية هي السبب، أم أن الإيمان له علاقة بهذا الأمر؟

الحبكة والسيطرة على الحدث الروائي:

في بداية الرواية يتحدث الكاتب عن الجدة وكيف أنها تشكل عبئا اقتصاديا على "عيني أو على أخيها لكن في زحمة الأحداث الروائية ينسى الكاتب هذه الجدة. ويعود الى تذكرنا بها في نهاية الرواية، فالكاتب كان قد نسى شخصية الجدة لكنه تدارك الأمر في النهاية في المجمل تكمن أهمية مثل هذه الأعمال في تقديمها مادة أدبية بمضمون تاريخي، مما يعطي المتلقي صورة حية عن تلك الفترة من الزمن.

الحريق(L'incendie):

هي الجزء الثاني من الثلاثية. وقد صدرت عن نفس الدار عام 1954 أي سنة انطلاق الثورة التحريرية. إذ تنتقل الأحداث إلى خارج تلمسان بإحدى القرى حيث تدخل عالم الفلاحين الذين سلبهم المستعمر أرضهم وصاروا أجراء فيها. وفل ظل هذه الظروف يقررون شن إضراب وقد أحرقت الأكواخ ويكون الصبي عمر شاهدا على هذه الأحداث، ويظهر هنا الوعي الذي بدأ يسري تمهيدا للثورة الكبرى. وقد جرت أحداثها بين 1939-1940.

رواية الحريق هي بركان على وشك الثورة، وخاصة وان ملامح المقاومة ضد المستعمر الفرنسي آنذاك قد بدأت بشائرها تبدو في الأفق، حيث يبدو فيها الحريق الكبير المشتعل داخل المكان وداخل الذات الجزائرية المهمشة من خلال تلاحم صور

الظلم، ومظاهره المتشابكة المعقدة ، والثورة التي كانت وشيكة الوقوع، والتي عجلت بها حركة الوعي الشديد الممتدة خطوطها في الأماكن الجزائرية المتوهجة بوهج البؤس، وقسوة الحياة، خاصة ما هو متواجد في أرجاء المدينة، من الأماكن تطأها وتطولها مظاهر القمع والقهر والعنف الاستعماري الاستيطاني الفرنسي البغيض.

ولأن بداياتها كانت في هذه البيوت الواطئة أمثال بيت "سبيطار" الكبير في مدينة تلمسان والذي يمثل نموذجاً للبيوت الجزائرية المهمشة في ذلك الوقت، فإن \"عمر\" وهو الشخصية الأساسية والرامزة للشخصية الجزائرية الباحثة عن الخبز أولاً، أيام البؤس والشقاء، والمتطلعة إلى طموحات الحياة الكريمة ثانياً. والساعية أخيراً إلى الحرية والكرامة والعدل وعمر هذا نشأ في هذا البيت الكبير "دار السبيطار".

وكان هو الرمز المحرك لبذور المقاومة والثورة، وهو أيضاً المتحرك داخلها كوقود لهذه المقاومة العارمة التي عمت كل بيت في الجزائر. كما نجد في . \"الحريق\" الأحداث، وتتحدد أبعاد الثورة . وبعد وصول "عمر" ورفيقته \"زهور\" إلى بلدتها الريفية ابنى بوبلن\"، حيث يبدأ التنظيم السياسي للفلاحين في التكون ويبلغ ذروته في الفصل العشرين من الرواية حين يعلن عن الحريق نفسه.

إن الزمن التاريخي الذي يفيد كخلفية في هذا النص هو زمن إعلان الحرب العالمية الثانية الذي كان من المفترض أن شخصيات الرواية ستشارك فيها، لذا يتتبع الكاتب "حميد سراج\" الشخصية الثورية المقاومة في النص إلى سجنه في تلمسان، في

هذيانه الناجم عن التعذيب، حيث يتداخل الماضي والحاضر والزمن وما وراء الزمن، لنعود إلى \"بنى بوبلن\"

لنشهد إعلان الإضراب وحريق الأكواخ ويأس الفلاحين ومقاومتهم، والقلق

الحدثالذي تلبس كل من في هذه القرية عشية بداية الحرب العالمية الثانية وهو المروى عام 1954 زمن صدور الرواية والذي تزامن صدورها قبل عدة أشهر من تفجر وظهور بوادر حرب التحرير الجزائرية لذا كانت وجهة النظر الروائية التي توخاها محمد ديب الحريق حدثت وقائعها عام 1939 وهي كانت رؤية تنبئية فاعلة لما سيحدث على أرض الجزائر من مقاومة وثورة وحريق.

النول(Le métier a tisser) :

هي الجزء الثالث من الثلاثية وقد ظهرت عن نفس الدار عام 1957. وهنا يصبح عمر شابا ويلتحق بمصنع النسيج إذ تجري الأحداث في عالم العمال في هذا المصنع ويزداد كرههم لظلم رؤسائهم المعمرين ومدى الظلم الذي يعانون منه. وقد تناولت هذه الرواية الفترة بين 1941-1942.

رواية "النول" هي آخر الأجزاء في ثلاثية محمد ديب حيث يتطرق الكاتب في قسم منها مجموعة من الأحداث إلى ما صارت إليه أحوال دار سبيطار، فقد تحولت المدينة القديمة المعروفة بالحرف إلى ما يشبه المدينة الصناعية، حيث كثرت معامل

النسيج بشكل لافت، وأصبحت السجاجيد والأغطية تشحن إلى فرنسا باستمرار، عمر الذي بلغ الخامسة عشر عاماً بدأ عمله في أحد المصانع الصوف. وتفاصيل أخرى سيتعرف القارئ من خلالها على حياة العمال البائسة داخلالمصانع.

في القسم الثاني يصف الكاتب ظاهرة التشرد والتسول التي كان يعانيها الكثير من الناس في تلك الفترة، و قد نظمت السلطات حملة لجمع هؤلاء المتسولين وطردهم خارج المدينة على قول ممثل السلطة الحاقد أنهم حشرات لابد من تطهير المدينة منهم، لكن الظاهرة لم تتوقف وعادت تلك الأعداد أعدادا أكثر من ذي قبل، وما صاحبه من شح فرص العمل والمعاملة السيئة و ظروف صعبة للعيش تحت قمع جنود الاحتلال.

ويركز الكاتب اهتمامه في (النول) على حياة طبقة من العمال في مصنع نسيج (ماحي بوعنان ويقدم الكاتب في هذا الجزء من الثلاثية مشهداً من مشاهد الحياة الاجتماعية، فقد هاجر الفلاحون من قراهم وفروا ليعملوا في المدينة وكانوا يزدحمون في الطرقات ويتسكعون في الشوارع: "كان" بعضهم يظل نائماً بغير انقطاع متلففاً كالقنفذ فإذا أراد أحد أن يحسن إليه كان لا بد له أن يميل عليه ليدس له القرش في راحة يده".

– إن هذه الرواية تنتمي إلى بيئتها الوطنية وإن لم تنتم إلى لغتها، غير أنها ترجمت إلى العربية وبالتالي عادت إلى لغتها الأم، ولهذا لا يمكن إلغاؤها من التراث العربي الروائي في الجزائر، فهي تصور بيئة تلمسان الاجتماعية كنموذج للحياة في مرحلة تاريخية معينة شديدة الأهمية بالنسبة للجزائر وإن اختار الكاتب فترة هدوء تاريخية (1939م–1942م) في الجزائر بسبب ظروف الحرب العالمية وإعلان فرنسا حالة الطوارئ العامة في هذا القطر العربي، ولكنها كانت فترة تشكّلواختصار للوعي الذي فجر الثورة الجزائرية فيما بعد.

الخلاصة :

لقد طرح محمد ديب في هذه الروايات رؤيته لأوضاع الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال. وهذه الأعمال تؤكد ارتباط الكاتب بما يجري ببلده ومواصلة مسيرته الأدبية. وبهذا فإن محمد ديب يعتبر من الروائيين الجزائريين الذين كتبوا هذا الكم من الروايات والتي شكلت رؤية واحدة. ورغم اللغة الفرنسية التي كتب بها فإن ذلك لم يمنع من طرحها للواقع الجزائري ومحاولة ولوج أعماق الشخصية الجزائرية. وهكذا فإن الروائي محمد ديب ومن خلال هذه الأعمال التي نقلته إلى العالمية سيظل ممثلا للرواية الواقعية الجزائرية، وستظل رواياته أيضا شاهدا على مرحلة هامة من تاريخ الجزائر.

المحاضرة الخامسة:

نشأة الأدب المغاربي وإشكالية الهوية :

يعرف عن المغرب العربي أنه المحيط المشترك بين ثقافات وتواريخ وأعراق وحدود جغرافية تمتد من شمال إفريقيا إلى غربها. بمجيء الاستعمار الأوروبي، صارت الساحة المغاربية تعرف ما يسمى 'مصطلح الحداثة وهو المصطلح الذي استمد غالبية تنظيراته من الثقافة الأوروبية، فدخل مشترك ثقافي جديد هو الأدب المكتوب باللغة الفرنسية، الذي رغم قصر فترة تأسيسه في الخمسينيات من القرن الماضي، إلى أنه صار رافدا من روافد الأدب العالمي. ظهر نوع من الحساسية اتجاه هذا الأدب المكتوب باللغة الفرنسية من حيث اعتباره أدبا أجنبيا بالنظر إلى الأصول الأجنبية التي ينتمي إليها أولئك الكتاب المغاربة، أو إلى مضامين الاعمال أو حتى الاساليب العربية في شكلها العامي، ناهيك عن علاقات الصراع القائمة بين المعربين والمفرنسين نتيجة اختلاف وجهات النظر. في إطار الحديث عن الأدب المغاربي الحديث يحضر ذكر القواسم المشتركة بين الآداب المغاربية، وتتبعا للموضوعية العلمية ينبغي الحديث كذلك عن المختلف بين هذه الآداب التي تستمد عوامل ثرائها ما يعزز وحدتها ويقوي تنوعها، ولعل ما يقوي عوامل الوحدة في الأدب المغاربي، هو هذا الإجماع داخل الأوساط الادبية المغاربية على أهمية إحداث نهضة مغاربية حقيقية شاملة، وعلى أهمية تحديث المجتمعات المغاربية.

إن الأدباء المغاربة في البداية كتبوا أدبا أقرب ما يكون إلى الأدب المشرقي، أدب مقلد يضعف فيه الإبداع في جوانب واسعة، غير أن نقلة نوعية عبرت عن ذلك الأدب وجعلته يتحرر من أدب المشارقة بفعل إرادة الكتاب في التخلص من التبعية، وذلك حينما كتبوا روايات وقصائد باللغة الفرنسية فكانت إبداعات "محمد عزيزة" من تونس، وروايات "إدريس الشرابي" وكذا الطاهر بن جلون من المغرب، ثم روايات مولود فرعون"، و"مولود معمري"، و"محمد ديب" و"كاتب ياسين" من الجزائر ، تدرج أعمال هؤلاء اليوم ضمن أفضل الروايات العالمية.

صادفت الكتابة باللغة الفرنسية إشكالية أخرى هي إشكالية الهوية، أفضت إلى طرح سؤال جوهري هل الأدب المغاربي فرنسي بحكم اللغة التي يكتب بها؟ أم هو عربي الروح والانتماء من حيث المضمون رغم اللغة الأجنبية التي كتب بها ؟، و قد استمر استخدام مصطلح الأدب المغاربي إلى غاية السبعينيات من القرن الماضي، للإشارة إلى أعمال ومؤلفات كتاب أو شعراء ينتمون للمنطقة الجغرافية نفسها، ويشتركون في موضوع مقاومة الاستعمار، والتعبير عن حق أهالي المنطقة في تقرير مصيرها وانتقاء خياراتها. غير أن الرهان يكرس فرضية التنافر أكثر من فرضية التقارب عكس ما يسميه الساسة بالوحدة المغاربية، مما يجعل وضعية المصطلح في تذبذب، وهذا نتيجة للخلافات والصدامات الداخلية المتكررة، فالحديث عن الأدب المغاربي اليوم وبالرغم من العلاقات التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية إلا أن انعكاسات

الوضع السياسي المتأزم أثرت سلبا على الأعمال المغاربية من حيث التواصل بينها، بالإضافة إلى تباعد في الذوق وفي المعالجة الموضوعة التي تعطي للإبداع قيمته وتثبت وجوده كمنتوج قابل للانتشار والتداول.

بقيالأدب المغاربي الحديث من الناحية الجغرافية على درجة مهمة من القرابة ،والحوار، وهذا الحوار سينتقل ليشمل الثقافة والأدب للنهوض بالصرح الحضاري للبلاد المغاربية بالعودة إلى المقارنة بين الأدب المشرقي والأدب المغاربي، يلاحظ البعض تلك النظرة الفوقية من لدن الإخوة المشارقة التي تصل في بعض الأحيان إلى مستوى الوصاية الأبوية، بحكم الاعتقاد الراسخ بأن المشارقة سبقوا المغاربة في التراكم الإبداعي والنقدي، وصارت لديهم أسماء أدبية ونقدية لامعة في حين بقي الأدب المغاربي يتطور في صمت لكن المفاجأة هي أن ذلك الأدب أحدث قفزة نوعية في العقديين الأخيرين.تجعلهيظهر في السنوات الأخيرة أن المغرب العربي أنتج نقدا جديدا، النظريات الجديدة المواكبة للتطورات الفكرية والأطروحات النقدية العالمية بدأت في التبلور على الساحة النقدية، مع أن المسألة في أعماقها أصداء لنظريات نقدية عالمية، مستوعبة بفعل الترجمة ويحمد للنقد المغاربي أنه نقد منفتح مواكب وفي الآن نفسه له هوية وشخصية يسهم هو الآخر في تطوير سيرورة العملية النقدية.

بتجاوز الحديث عن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، نسلط الضوء على الإرهاصات الأولى الممهدة لظهور الرواية المكتوبة باللغة العربية، إذ ظهر في تونس أول عمل

روائي، على يد 'علي الدوعاجي' في "جولة بين حانات البحر الأبيض المتوسط" سنة 1935، وإن كانت البداية سنة 1906 برواية " الهيفاء وسراج الليل" لصالح السنوسي، ثم تلتها سنة 1910 رواية "الساحرة التونسية" لل الصادق الرزوقي، ثم محمود المسعدي في "حدث أبو هريرة قال" عام 1940 و" مولد النسيان" 1945 و"السد" ومحمد العروسي في "التوت المر".

أما في المغرب، فقد أصدر الطاهر بن جلون روايته "طفل الرمال" عام 1957 وعبد الكريم غلاب "دفتا الماضي" و محمد زفزاف "المرأة والوردة" سنة 1972. وتعتبر الجزائر بخر قطر مغاربي يعرف ميلاد الرواية، عام 1971 عندمابدأت الرواية باللغة العربية بالنشر والانتشار ولذلك أطلق واسيني الأعرج على السبعينات عقد الرواية الجزائرية.

ظهرت الرواية الموريتانية كشكل إبداعي يعتد به في بداية الثمانينيات، أول رواية هي الأسماء المتغيرة لأحمد ولد عبد القادر سنة 1981، ثم تبعتها رواية القبر المجهول" للكاتب نفسه سنة 1984، بعدها ظهرت رواية "أحمد الوادي" للشيخ ماء العينين بن شيبة سنة 1987، فقد برزت هذه النصوص في ظروف كان فيها المجتمع الموريتاني في بداية الحداثة، لذلك نجد اهتماما كبيرا بطرح القضايا التي تمس الوطن والمجتمع معا بالتركيز على الهوية العربية والاشتغال على المتخيل التاريخي، المتجسد في رواية مدينة الرياح، إذ يمكن اعتبار هذه الروايات هي البدايات الأولى لتأسيس الرواية

الموريتانية، فقد كانت تلكم الروايات شديدة الارتباط بالواقع فرصدت تحولاته وهزاته، ولم تجعل همها التأريخ للأحداث والأشخاص بل جعلت الوقائع التاريخية خلفيات تنفذ منها إلى واقع فني.سنةبينما يشهد الأدب الليبي تذبذبا في الإنتاج والإبداع، أسس لأول رواية ليبية "حسن ظافر بن موسى" 1937 ، أصدرت في سوريا، يعد ابراهيم الكوني من أحد الكتاب الليبيين الذين استمدوا من التاريخ والطبيعة الأم مادة خام في تحرير نصوصه الفنية الإبداعية.

المحاضرة السادسة :

أ- الظروف العامة لميلاد الأدب الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

- **حرب الإبادة المادية:**

عند نزول القوات الفرنسة على ساحل سيدي فرج في 14 جوان 1830م، كان ذلك بمثابة أول خطوة لتنفيذ أجندة أعدت إعدادا محكما ومسبقا هدفها الأسمى إبادة الشعب الجزائري والاستيلاء على خيراته.

ومن أجل ذلك استخدمت فرنسا أبشع وسائل الحصار والتقتيل ذد الشعب أعزل، فكشف هذا الدخيل عن وجهه القبيح، وجردهن كل القيم الإنسانية والأخلاقية وتفنن في صناعة الموت ونشر الخراب والخمار وراح ينادي بشعارات خدمة لمشروعه ويطبق سياسات أخاطها على مقاسه منها: سياسة الأرض المحروقة والتي لخصها في أمر عسكري مفاده:

" منع العرب من الزرع، والحصاد والرعي"[1]

أما عن تلك الجرائم البشعة التي كانت ترتكب في حق المدنيين من قتل وتشريد وتهجير وسجن وتعذيب فكانت تمارس برغبة وتلذ من طرف القادة العسكريين أنفسهم.

" وكان الضباط أنفسهم يكتبون منها بكثير من التفاصيل وفي شيء من الزهو والتلذذ وبفضل كتابات تلك صار بين أيدي الباحثين اليوم شهادات تاريخية على قدر كبير من الدقة"[2]

وبهذه المناسبة مزق الاستعمار النسيج الاجتماعي، ضف إلى ذلك الإلغاء الديني والجنسي إنها حرب إبادة استهدفت البشر والحجر وأهلكت الإرث والنسل، وأضحى الجزائري غريبا في أرضه يصارع على عديد الجبهات، الأوبئة والأمراض، الجهل الجوع...إلخ، أدى ذلك إلى تناقص عدد الجزائريين ، بشكل يدعو للقلق.

---

[1] أحمد منصور، الادب الجزائري بلسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه ديوان المطبوعات الجامعيية الجزائر، 2007، ص 32

[2] المرجع نفسه ، ص 33

" وكاد هذا الوضع أن يؤدي بهم كما تدل الإحصائيات إلى الإنفراض الفعلي فقد قدر الجنرال بيجو سكان الجزائر سنة 1844 بحوالي أربعة أو خمسة ملايين نسمة ولكن عددهم تناقص في سنة 1872 إلى أقل من نصف هذا العدد أدى إلى مليونين ومائة

وخمسة وعشرون ألف نسمة"[3].

ومما زاد الأمور سوءا الاستيلاء على الأراضي وتعميرها بالعنصر الأوروبي وسخرت القوة العسكرية لتحقيق هذا الهدف.

كل ذلك كمقدمة لكشف النقاب على المبادئ العقدية للاستعمار من أجل فهم وعدم استغراب أي سلوك ناجم عنه وإدراك قيمة تطور النزعة العسكرية" حتى تجاوزت الهدف الذي وضعته أمامها لنفسها، وصارت لا تقف عندها"[4]

وكلما أجرموا فتحت شهيتهم أكثر للمزيد من الإجرام بل ارتكاب جرم أكبر، وتسندهم في ذلك قوة عسكرية أضحت أداة طبيعة أيديهم، تأتمر بأوامرهم وتنتهي بنهيهم، وتحرص على تنفيذ رغباتهم في غير توان أو فتور.

ثم سن المشرع الفرنسي عددي القوانين ومنها قانون" الأندجينا" القعمي الخاص بالجزائريين وحدهم وهو قانون يلحق العار بمن شطره ومن سهر على تنفيذ على حد سواء، قانون جائر هدرت فيه كرامة الجزائري وقهرت به إرادته وحمل في طياته نصوص وتشريعات لا يمكن تخليها" من تقويم جماعي وتسخير في الأعمال الشاقة وتصفية جسدية وحجز ونقي، حيث كان هذا القانون يبيح للإدارة المحلية توقيف أي جزائري وإنزال أقصى العقوبات عليه دون الرجوع إلى المؤسسات القضائية"[5].

---

[3] المرجع نفسه، ص44.

[4] مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ت. حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، 2007، ص 107.

[5] أحمد منور، مرجع سابق، ص 52.

ونتيجة لهذه القوانين، وبعد مباشرة تطبيقها تظهر آثارها السلبية التي أثلجت قلوب (الجزائريين) المستعمرين كما جاء في ذلك في عنوان كتاب لتوماس دوكوانسي[6]: " بأن الحرب صارت تعد من الفنون الجميلة"

وأورد الدكتور مصطفى الأشرف عدة أمثلة استشهد بها عن جرائم الاستعمار واستقاها من هذا الكتاب، وكانت بمثابة شهادات حية على لسان القادة العسكريين فجاء على لسان الكومندان ويستي متحدثا عن حملة عسكرية قادها بنفسه في حنوت بمقاطعة الجزائر:" إن عدد الدواوير التي أحرقت المحاصيل الزراعية التي أتلفت، لا يكاد يصدق فلم يكن أحدنا يرى على الجانبين من الطابور سوى النيران"[7].

هذه السياسات التعسفية التي أسلفنا وصفها بأنها لم يسلم منها لا الشجر ولا الحجر ولا مواشي ولا بشر.

حيث كبت الكولونيل فوري منتشيا بحجم الخسائر التي ألحقها جنوده بالجزائريين في حملته العسكرية التي اجتاح بها كلا من : مليانة، شرشال، فيصرح بكل دم بارد:اختطفنا فن هذه الحملة ثلاثة ألاف من رؤوس الأغنام وأشعلنا النار فيما يزيد على عشرة من القرى الكبرى، وقطعنا وأحرقنا أكثر من عشرة آلاف من أشجار الزيتون والتين وغيرها.."[8]

هذه الممارسات تهدف بالدرجة الأولى إلى قذف الرعب والفزع في نفوس الجزائريين ومن ثم إخضاع البلاد وارتقاء أعلى درجات (سلم) سلم المجد إنها أشبه ما تكون:" الحرب من أجل الحرب، أو التغني الرومانسي بالقتل"[9].

---

[6] مصطفى الأشرف، مرجع سابق، ص 108.

[7] مصطفى الأشرف، مرجع سابقن ص 08

[8] مصطفى الأشرف، مرجع سابقن ص 08

[9] مصطفى الأشرف، مرجع سابقن ص 114

أما روبير ميل كتب رواية تحت عنون:" مهنتي هي القتل" بطلها ضابط نازي لديه نزعة عدوانية وحشية وحقد كبير على العرب والمسلمين وهذا ما يبرر تسمية كتبته بكتيبة" مشاة الموت"

اما الجنرال شانغاراتي كان صريحا قال: بأن الجيش الفرنسي مهنته يتسلط على أوراق الناس وأملاكهم، من أجل إرغامهم على الخضوع"[10].

حرب الإبادة المعنوية:

إلى جانب حرب الإبادة المادية التي مارستها السلطات الاستعمارية على الجزائر أرضا وشعبا هناك حرب إبادة أخرى لا تقل عنها ظروفا وفتكا إنها حرب الإبادة المعنوية التي استهدفت بدورها ضرب القيم الروحية في مقتل.

تفرعت حرب الإبادة المعنوية بدورها إلى شقين هما: هدم وتدمير البنيات الثقافية والاجتماعية والتشريعية والروحية الشعب الجزائري وإطلال بنيات أخرى محلها مستمدة من ثقافة المستعمر ونظمه الاجتماعية"[11]

وهذا ما يعرف بالتحلية، حيث ضرب الاستعمار كل المبادئ والقيم والمعاهدات وداس المقدسات فلم تسلم دور العبادة ولا المدارس حيث: تم الاستحواذ على جزء كبير من المساجد واكترى ببعضها إلى التجار وحولوها إلى محلات، وخصص بعضها الآخر سكان جيوش الحملة وأعطى الجنرال كلوزيل أوامره بهدم محلات بيع الكتب وسوق المقاييس وسوق الصباغين وأصبح عمالها بعد تهديمها بدون مورد"[12]

ولم تسلم المقابر كذلك هي الأخرى مشابهة حيث امتدت لها يد الاحتلال وعبثت بأحجارها وعظام الموتى.

---

[10] المرجع نفسه، ص 114

[11] أحمد منصور، مرجع سابقن ص 55

[12] المرجع نفسه، ص 57

كل هذا كان مقدمة للممارسة حرب الإبادة المعنوية لتأتي بعدها" خطوات لاحقة شملت أملاك الحبوس الإسلامية والإدارة والتشريعات والقوانين والتعليم وكل شؤون الحياة العامة"[13].

حيث سعى الاستعمار جاهدا لتجهيل الأمة الجزائرية وإبعادها عن ثوابتها وتراثها الفكري، ومقوماتها الحضارية، من تعلم اللغة العربية والأدب والتاريخ رغبة منه في طمس معالم الشخصية الجزائرية بمقوامتها العروبة، الامازيغية، الإسلام.

وفي سنة 1883 عندما اتخذ قرار فتح المدارس في وجوه الجزائريين كان ذلك لتبين صورته خارجيا، أما نوعية التعليم المقدم حينها فكان حقا أريد به باطلا، فلم يكن الهدف منه استجابة للخناجر المبحوحة والأصوات العطشى من الجزائريين المنادية لحقها في المعرفة والتعليم إنها الهدف الأساسي تقريبهم من فرسنا لغة ووطنا لتسهيل عملية إدماجهم لاحقا ويلخص الدكتور أحمد منور مخطط حرب الإبادة المعنوية في أربع نقاط هي:

1. الاستيلاء على أملاك الوقف لتجفيف منابع التمويل عن المؤسسات إسلامية.
2. تغيير نظام التعليم السائد في لغته ومحتواه.
3. القيام بحملات التشجير الواسعة لتنصير السكن.
4. تزوير تاريخ الجزائر وطمسه وتشويهه إن تعذر طمسه[14]

فقرار الاستيلاء على أملاك الوقف التي كان ينظر لها على أساس انها المصدر الأساسي وخزان إمداد لا ينضب للمقاومة، كان في منظور السلطات الاستعمارية أنه الاستيلاء عليها يتم القضاء على المقاومة من جهة وتعطيل العمل بمبادئ التشريعية من جهة ثابتة حيث قال:

[13] المرجع نفسه، ص 57

[14] احمد منصور، مرجع سابق، ص58

صدر قرار الاستيلاء على أملاك الوقف الإسلامية العامة في الثامن ديسمبر 1830 وكان عددها 2600 وقفا، وكان قرار التأميم بحجة أن لا تشغل أموال الأوقاف في إشعال وتموين الثروات...[15]

كما عمدت السلطات الاستعمارية إلى إلغاء العمل بالأعراف والنظمات القانونية والإدارية المقصودة وبحجية أنها مستمدة من الشريعة الإسلامية وجردت القضاة من مهامهم وخلصت نشاطهم خاصة فيما يتعلق بالحكم كالجنايات والجنح حيث أصبح الحكم فيها حكرا لدائرة الاستئناف الفرنسية.

أما المحاكم الجزائرية التي كان لها دور كبيرا في تثبيت الاستقرار والحفاظ على حقوق الناس منذ عهد الداي فأصبح وجودها صوريا وفي ظل حرب الإبادة المعنوية عمدت السلطات الفرنسية إلى محاربة اللغة والمدارس الجزائرية كما جاء على لسان الدوق روفيكو قائلا: أرى أن نشر لغتنا هي الوسيلة الأكثر فعالية لفرض هيمنتنا في هذا البلد ..إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نضعها هي أن تحل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي"[16]

فأخذت السلطات الاستعمارية على عاتقها تغيير نظام التعليم ولغته كما عمدت إلى تزوير التاريخ وتشويهه، وقامت بحملات التبشير الواسعة لتنصير السكان وبعد تنفيذ كل هذه المخططات توهمت فرنسا أن الجزائر أصبحت قطعة منها حيث أنها في سنة 1930 احتفلت بمرور قرن على احتلال الجزائر وكانت حينها تظن بأنها قضت نهائيا على الشخصية الجزائرية وأن احتفالها هذا إنما هو احتفال بالجزائر الفرنسية.

وإدماجها تماما الجزائر فرنسية التي قال عنها فرحات عباس وإن هذه العبارة وحدها لكفر بالنطق السليم ترى من جهة عشرة ملاين من الجزائريين طرحوا إلى الحضيض الأسفل في المجتمع يزعم أنه عصري ومتدين ومن جهة أخرى نرى (80 ألف) 800 ألف أوروربي

---

[15] مرجع سابق، ص 60

[16] مرجع سابق، ص 57

جاءوا من كل درب وصوب واستأثروا بالوظائف كلها وتقلدوا زمام الحكم واغتصبوا ثروات البلاد العربية وهذه هي الصورة الناطقة لما يسمونه بالجزائر الفرنسية"[17]

في ظل هذا الوضع المتأزم على مختلف النواحي والأصعدة وما آلت إليه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية بفعل الآلة الاستعمارية كان الكاتب الجزائري أكثر الفئات الاجتماعية تأثرا بها فساهمت في تشكيل شخصيته، فوعى وضعه الحقيقي وفهم نوايا الاستعمار وانعكس كل ذلك على إبداعه ليولد من رحم هذه الأزمة بواكير الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

[17] فرحات عباس، دليل الاستعمار، منشورات ANEP المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للرغاية، الجزائر، 2006، ص30.

المحاضرة السابعة :

نشأة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

يرجع المؤرخ والباحث جان ديجو أول نص، لدى كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1981 وهو عبارة عن قصة بعنوان إنتقام الشيخ، وبين السنوات العشرين من القرن العشرين التي ظهرت فيها عدة نصوص أدبية، حث إن الجزائريين كتبوا باللغة الفرنسية ولا سيما في مجال الرواية فإن جان ديجو المسرح الأول للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يتخذ سنة 1920 كإنطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ ويعد المؤلف القايد بن الشريف بداية تلك الإنطلاقة وينظر إليه على أنه أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية، إذا سلمنا بهذا التاريخ على أنه بداية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وهو مالا ينكره بعض الباحثين المعروقين ولكنهم يتجاهلونه في الوقت ذاته كما يتجاهلون كل ذلك الأدب الذي كتبه الجزائريين بالفرنسية، حيث أن هناك ملاحظة لا يمكن تجاوزها وهي طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر وبداية ظهور هذا الأدب وفي الحقيقة أن هناك عوامل وأسباب عددية أخرت ظهور هذا الأدب أبرزها عاملان رئيسيان الأول سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار طوال احتلاله للجزائر، الشيء الذي جعل العلاقة بين المحتلين وأهل البلد الشرعيين علاقة حرب وتوتر دائم منعت أي احتكاك إيجابي بين الطرفين ووقفت حائلا دون أي تعاون مثمر سواء على الصعيد السياسي أو الفكري وذلك لانعدام الثقة بينهما[18].

لا يلتقيان كان لكل مجتمع منهما حياته الخاصة التي يشاركه فيها الطرف الآخر فالمستوطنين الأوروبيين مفاهيمهم وملاهيهم ومسارحهم وللجزائريين مفاهيمهم وجمعياتهم الثقافية ونظرا لهذه الوضعية العدالية المتحكمة والتي ظلت العلاقة بين الطرفين فقد كان أي تبادل ثقافي أو تلاقح فكري أو تأثير حضاري بينهما يكاد يكون متعلم، لقد كان المحتل ينظر في الغالب إلى ثقافة المحلية نظرة احتقار أما الجزائريون يتوجسون خفية من ثقافة المحتل

[18] احمد منصور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، ط1، 2007، ص 130.

ويقابلون بحذر كل ما يصدر عنه ولكن هذا الوضع عرف عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بعض الانفراج ووقع ما يشبه نوعا ما من التقارب الحذر بين الطرفين، حيث حاول كل طرف الانفتاح على الآخر وساعة على الانفراج الدولي وإعلان مبادئ التي تحدثت لأول مرة عن حق الشعوب في تحقيق مصيرها.

كما ساعدت على تجسيد هذا الانفراج إجراءات سياسية وإدارية اتخذتها الحكومة الفرنسية وخفت من التوتر وهيأت الأجواء المناسبة وأصبح يعرف بقوانين 04 فيفري 1919، التي أبلغت السلطات الاستعمارية بموجبها معظم مواد قانون الاندجينا العنصرية الذي كان يحكم الجزائريين بقبضة من الحديد، حيث أصبح في إمكان الجزائريين لأول مرة في التاريخ الاحتلال الفرنسي حق إنشاء الأحزاب السياسية وإصدار الصحف.

واعتبر الأدباء والروائيين ككتاب فرنسيين قبل سنة 1962 وذلك لأن الوضع القانوني للبلاد يلحقها بفرنسا ويعتبرها جزء منها أي إنتاج أدبي فيها ينطوي تحت مظلة الدب الفرنسي ولكن المعمرين ممن كانت لهم إنتاجات أدبية حاولوا أن يستقلوا بإنتاجياتهم ويميزونها عن غيرها بإعطائها صفة الانتماء الجزائري[19].

وقد عالج الكتاب من فئة المعمرين في نصوصهم مواضيع عدة منها العادات والتقاليد العربية والإسلامية لدى سكان الأهالي، واقع المعمرين وانشغالاتهم

مسألة الزواج بين الطوائف(المسلمين، المسيحيين) وفرص التعايش بينهم ولم تخل بنياتهم اللغوية من المفردات مستمدة من اللهجة المحلية وحاول بعض الباحثين وضع الادب الجزائري المكتوب بالفرنسية في خانة واحدة مع الأدب الفرنسي المكتوب في الجزائر فذكر مها رواية الطاعون La paste والغريب L’étrager لألبير كاموانى التي جرت أحداثها في مدينة وهران، حيث كشفت كتابتهم عن رؤى عالمية وتوجيهات إنسانية ولم تهتم كثيرا بكشف الواقع المرير الذي عاشت الجزائر في تلك الفترة 1995 حتى وإن ضمت كتابا ولدوا في الجزائر لكنهم كانوا موالين لسياسة فرنسا وكانت كتاباتهم إمتداد لكتابات الفرنسيين داخل

[19] احمد منصور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، 131

فرنسا، ما يجعلها في حالة تنافر مع الكتابات التي كتبتها الجزائر باللغة الفرنسية فالجزائر كانت بالنسبة لهم الأم وليس الوطن البديل.

كما عبر عنها الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر والذين كانوا متشبعين بالثقافة الفرنسية والفكر الغربي ومنتمين إلى فئة مغايرة لم تفهم قط رؤية الشعب الجزائري ولم تشاركه شعوره حيال عدة قضايا جوهرية ولم تعرف معنى الإزدواجية اللغوية، شكلت اللغة الفرنسية العنصر الأساسي المشترك بين كتابات الروائيين الجزائريين والروائيين من المستوطنين وحتى الفرنسيين الذين زاروا الجزائر أو كتبوا عنها، ولقد اعتبروا هؤلاء عدا الكتاب والأصل والمنشأ. الجزائري أنهم جزائريون.

يرجع مالك حداد الفرق بين الكتاب والمستوطن والأهالي رغم أنهم يكتبون بلغة واحدة هو الحنين إلى اللغة الأم التي منعت من تعلمها فأصبحوا بذلك أيتام بالإضافة إلى انتماء الدين الإسلامي والثقافة الجزائرية بكل مقوماتها

حيث ذهب بعض الكتاب إلى القول بأن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية أدب فرضته المرحلة وهو أدب انتقائي سيزول بمجرد زوال بواعثه وجاءت هذه الآراء مع اقتراب تاريخ استقلال الجزائري، ووصفوا بأنهم كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية وأن نصوصهم هي تماما مثل السينما الصامتة التي اختلفت بمجرد ظهور السينما الناطقة ومثال ذلك مالك حداد الذي انقطع عن التأليف باللغة الفرنسية إلا نادرا بعد الاستقلال ودعا الكتاب الآخرين إلى تبني موقفه وفسح المجال للكتاب باللغة العربية ومما أثار الانتباه رفضه تسمية الأدب الجزائري باللغة الفرنسية واستعماله عوض عن ذلك الأدب الفرنسي والتعبير الجزائري فهو فرنسي بالنظر إلى وسيلة التعبير ولكنه جزائري، قلبا وروحا، حتى محمد ديب الذي لم يرشد استخدام اللغة الفرنسية ويعود ليقول أنه لن يشعر أبدا بانتماء المجتمع ما بمجرد الكتابة بلغته.

اما مولود معمري وكاتب ياسين فلا يرون في توظيف اللغة الفرنسية غير وسيلة لتوصيل أفكارهم، ولا يشعرهم ذلك بأي عقدة نقص بل هو إثراء للأدب الجزائري وكانت نسبة الأمية

في الجزائر أثناء الاستقلال تناهز 85% من عامة الشعب فقد تكلم وكتب بها عند قليل من الجزائريين الذين ينتمون للطبقة المثقفة واما العربية فلم تكن أحسن حالا نتيجة سياسة محاربة اللغة العربية التي انتهجها الاستعمار، وحتى خيار الانتقال من الكتابة باللغة الفرنسية إلى اللغة الفرنسية لم يكن متاحا نظرا الجهل الكتاب بأدبيات وجماليات هذه اللغة باستثناء قلة قليلة وضعف عدد القراء المحتملين، فاعتزل مالك حداد الكتاب بالحرف الفرنسي.

وتوجه ديب إلى عوامل الرمزية والتجريدية بعيدا عن أدب النضال الذي كتب وسلم كاتب ياسبن منحنى مغاير باختيار التأليف المسرحي باللهجة الجزائرية التي اعتبرها أقرب وسيلة تخاطب عقول أعمال الفلاحين والطبقات الكادحة، اما مولود معمري فحافظ نوعا ما على وتيرة منتظمة وإن كانت متباعدة لإنتاج نصوص روائية ومسرحية ولكن مجهوده تركز في اللغة الامازيغية وإحياء تراثها وتقوية مكانتها، أما أسيا جبار فقد حاولت أن توازن بين استعمال اللغة الفرنسية وتضيف التراث الشعبي الجزائري في نصوصها الروائية واتجهت إلى تنويع انتاجاتها فولجت الشعر والمسرح وحتى السينما[20].

كما أن الأدب الجزائري شأنه شأن الآداب العالمية والعربية يتأثر بما حوله من عوامل تارخية واجتماعية وثقافية وفكرية وسياسية، ويأتي في مقدمتها الاستعمار الفرنسي الذي اتخذ من سياسة التجنيد وسيلة لطمس معالم الهوية الجزائرية الإسلامية العربية فقد جند كافة الوسائل وتوسل مختلف الطرق الكفيلة بتحقيق ذلك من بينها:

- منع تعليم اللغة العربية ومحاربة المدارس القرآنية والزوايا التي كانت تقوم بمهمة تعليم الجزائريين لغتهم ودينهم.
- تشجيع الحملات التبشيرية
- إنشاء المدارس الفرنسية المختلطة في المدن هذه الأخيرة ضمت الغالية العظمى من الفرنسيين والأقلية من الجزائريين وكان الهدف من ذلك تكريس اللغة الفرنسية باعتبارها لغة حضارة وثقافة وكذا تكوين جيل جديد يتطلع إلى القيم المثالية.

[20] احمد منصور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ص 134- 135

المحاضرة الثامنة :

تطور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

أ- الأدب الكولونيالي:

انبثق عن المدارس المختلطة في الجزائر نخبة مثقفة من الجزائريين الذين اتسعت نظرتهم للعالم وانجلت بصائرهم كما يحدث لبلادهم، فاتخذوا من اللغة الفرنسية التي أرادوا أن تكون بديلا عن لغتهم الأم وأن تعزز إنتمائهم لفرنسا، وسيلة للتحدث بلسان الشعب والدفاع عن حقوقه وتحصيل حريته من خلال كتابات قصصية وروائية تحاكي الواقع وتفضح زيف الإدارة الفرنسية في الجزائر وما ترتكبه في حق الشعب، وقد تمظهرت هذه الكتابات الأدبية من خلال عناوين كثيرة، كان أولها قصة قصيرة بعنوان" انتقام الشيخ" كتبها محمد بن رحال ونشرتها المجلة التونسية الأدبية والفنية في العدد الثالث 26—09 1991/10/03 اما أول سلسلة من القصص فقد كتبها أحمد بوري تحت عنوان" مسلمون ومسيحيون" ونشرت في صحيفة الحق سنة 1912م.[21]

الرواية الاندماجية

إن الكتاب الجزائريين الذين استعانوا بالحرف الفرنسي كانوا من الطبقة المثقفة وشغلوا وظائف هامة واعتبروا أنهم تخرجوا من المدرسة الفرنسية، فقد ساندوا مبدأ الاندماج ونادوا بالمساواة بين الجزائريين والفرنسيين.

يعتبر مؤرخ الأدب الجزائري باللغة الفرنسية جان ديجو سنة 1920 البداية الفعلية للأدب الجزائري باللغة الفرنسية وذلك تزامنا مع صدور أول رواية بعنوان" أحمد مصطفى القومي" لصاحبها القايد بن الشريف[22]، وتلتها رواية أخرى منها: زهرة زوجة المنجمي" التي كتبها عبد القادر حاج حمو سنة 1925 ، ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: لماذا

[21] حبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، دراسة سوسيون فنية، تراميم للنشر المطبعة 01، 2013، ص 36-37

[22] احمد منصور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، دار التنوير، ط1، 2013، ص 74

احتاج الأدب كل هذا الوقت للظهور والتموضع على الساحة الأدبية؟ أما الجواب هذا السؤال فيكون بالرجوع إلى السنة التي سبقت صدور أول رواية وهو تاريخ انتهاء العرب العالمية الأولى وإعلان مبادئ ولسون التي أعقبها إنفراج نسبي في تعاملات الإدارة الفرنسية مع الجزائريين وذلك تطبيقا لقوانين 04 فيفري 1919 التي ألغت مواد قانون الأنديجانا العنصري، وقد اعتبرت الإدارة الفرنسية ذلك مكسب مستحق للجزائريين الذين حاربوا إلى جانب الفرنسيين في ساحات المعارك إبان الحرب العالمية الأولى، وكذا الذين ساهموا في تشغيل المصانع الفرنسية خلال فترة الحرب عن كل هذا حصول الجزائريين ولأول مرة منذ تاريخ الاحتلال على حق إنشاء الأحزاب السياسية والمشاركة في الانتخابات وإصدار الصحف مكاسب اختارت فرنسا الإستعمارية توقيت منحها للجزائريين بعناية وذلك استعدادا لانتقالها بالذكرى المئوية، ذكرى أرادت من خلالها أن ترسم صورة الجزائر الفرنسية المتحضرة وتوهم الشعب أن يجني ثمار احتلال فرنسا لأراضيه، فكانت مكاسب رمزية والغرض منها تبرير الاغتصاب المتواصل لكل من هو جزائري ولكن كان انتعاش الانتاج الأدبي من أبرز نتائجها.

أهم الأعمال التي أنجزت في هذه الفترة (1920– 1930) بالإضافة إلى رواية القايد بن شريف وعبد القادر حمو المذكورين سابق: نذكر رواية" مأمون بدايات مثل أعلى" لشكري خوجة" الصادرة سنة 1928 وراوية العلج أسبرير بروسيا" سنة 1929 للمؤلف نفه.

ينزع الباحثون والنقاد إلى إضفاء صفة الخضوع على كتاب هذه الحقبة أي أنهم كانوا ضحية للإدارة الفرنسية ويبدوا ظاهرا من خلال كتاباتهم أنهم تشبعوا بالثقافة الفرنسية بل يشعرون بالامتنان اتجاه فرنسا ويكتبون لجزائر فرنسية تنعم بالسلام ومثالنا في ذلك رواية" بولنوار الجزائري الشاب لصاحبها رابح زناتي الذي كتب أن: من حظ كل الجزائريين أن تكون الدولة الأكبر والأكثر حضارة وهي المعلمة فمهما تمكن الجزائري من أن يخطو خطوات عملاقة[23]، ويحذو حذوه أيضا شكري خوجة عندما يتساءل البطل المأمون قائلا:"

[23] جدبور أم الخير، مرجع سابق، ص 37

تملك فرنسا حقوقا علي وأنا أشعر برغبة غامضة أن أقدم شيئا يفيدها.. وأنا العربي لي هدف وهذا رائع أن أجده، هي فكرة الوطن التي بدأت تتفتح بداخلي"[24].

رغم أن هذه الروايات لن تتصد للواقع الاستعماري المرير الذي عايشه الشعب الجزائري إلا أنها تمكنت من تسليط الضوء على بعض الأفكار السلبية التي انتشرت في المجتمع نتيجة الاحتكاك بالثقافة الداخلية منها الإدمان على الخمر ولعب القمار الظاهرتان اللتان عالجتهما تماما روايتي: زهراء امرأة المنجمي ورواية مأمون بدايات مثل أعلى"

أما الروايات التي صدرت لاحقا فقد اهتمت بتصوير انتماء الجزائريين الذي شتته الاستعماري بين قيمة الوطنية (العروبة والإسلام والأمازيغية) من جهة والقيم الفرنسية الداخلية التي فرضتها من جهة أخرى ومن بينها نذكر رواية " مريم بين النخيل 1934 لمحمد ولد الشيخ بولنوار الجزائري الشاب لرابح زناتي وكذا رواية ليلى فتاة (جميلة) جزائرية لجميلة دباش.

كانت هذه الروايات تدور في فلك البحث عن الذات وشأن جل الشخصيات بين كون المرء جزائريا وما يوازيه من انتماء وكونه تابعا للإدارة الفرنسية وما ينجز عنه من التزامات تظهر البحث عن الذات في الرواية من خلال ما دعت إليه القوى السياسية التي واكبت تلك الفترة ونذكر منها شخصية فرحات عباس الرجل السياسي الذي شل التيار الاندماجي ونادى بالمساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والفرنسيين الذين لطالما اصطدموا بالهوة العميقة التي فصلت بين الثقافتين، والنظرة المتبادلة التي لم تتغير فقد نظر الجزائريين إلى الفرنسيين بعين الغريب والدخيل عليهم ونظر الفرنسيين إلى الجزائريين باحتقار ودونية ونذكر من الأدباء الذين ساندوا فكرة الاندماج والتعايش بين الأهالي والأوروبيين : مولود فرعون من خلال روايته ابن الفقير التي كانت أقرب إلى السيرة الذاتية من خلال تصوير واقع الإنسان في البلاد القبائل وكيف يمكن لحياته أن تتغير بالاحتكاك بالأوروبيين أما الهجرة إلى فرنسا أو الاختلاط بهم في المعاهد ودور التعليم.

[24] المرجع نفسه، ص 38

كانت هذه السمات الغالية على الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية منذ البدايات والتي ما لبث أن اعتراها التغيير تماشيا مع ما فرضته الأحداث العالمية كانتهاء الحرب العالمية الثالثة ومجازر 08ماي 1945 والتي تمكنت من تغير قطاعات الرواية وتوحيد دفنها نحو كتابة ذات شكل مغاير.

- **الأدب الكولوتيالي التوري:**

تأثرت الجزائر بما تمخضت عنه مجريات الحرب العالمية الثانية باعتبارها مستعمرة لإحدى الدول التي دارت بها الحرب على جزء من أراضيها وشاركت فيها بقواتها حتى خارج الحدود أراضيها وقياسا على كون الأدب مرآة الواقع ونبض الشارع، فقد ازدهر الإنتاج الروائي بعدما وضعت الحرب أوزارها، ويعزو مولود فرعون ذلك التطور الحسن الفني والشعور بالحاجة إلى الإنعتاق وإمكانية تحقيق ذلك فيقول " خلال الحرب العالمية الثانية حدثت أشياء كثيرة شاركنا فيها نحن الجزائريين فشعرنا على إثرها بتنصيب وانتهاج خروجنا من المأزق ممكن، فخرجنا ثم ذلك المأزق بالكتابة قبل أن نخرج منه في الواقع"[25].

فقد شهدت سنة 1948 صدور روايتين الاولى بعنوان: إدريس لعلي الحمامي والثانية بعنوان لبيك لمالك بن نبي وبالرجوع إلى الخلفية الفكرية لكل منهما نجد أن الحمامي كان أحد الكتاب الذين عرفوا بنضالهم الطويل ضد الاستعمار اما مالك بن نبي فهو مفكر إسلامي أخذ عاتقه مهمة الإصلاح والإرشاد ونقد الآفات التي انتشرت داخل المجتمع الجزائري وتقديم الحلول لها ولعل أبرز ما دعا إليه بن نبي العودة إلى القيم الاخلاقية الأصيلة والتشبث بالعقيدة الإسلامية السمحاء من أجل التحرر.شكلت هذه الرواية بنية الأساس لاتجاه جديد شق طريقه داخل الأدب الجزائري بلسان الفرنسي، فقد لوحظت طفرة هامة في نوعية المضامين التي حملتها الروايات، هذه الأخيرة أخذت على عاتقها تصوير واقع البؤس والحرمان الذي يعيشه الجزائري وتسليط الضوء على الوجه الحقيقي للاستعمار الفرنسي ولعل من بين أهم الروايات التي شكلت منعطفا حاسما في تاريخ الرواية الجزائرية التي تجاوزت

[25] عايدة أديب باهية، الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 25

الصورة النمطية المقدمة سابقا عن العلاقة المطالية بين الإدارة الاستعمارية والأهالي لتغوص في واقع الشعب الذي كابد القهر لسنوات طويلة هي رواية " الدار الكبيرة" أمحمد ديب سنة 1952 التي تصف الفقر والجوع السائد نتيجة الاحتلال وتكشف الستار عن فئة جديدة تسمى بالمناضلين الذين يعيشون بين أفراد الطبقات الدنيا من الشعب وينتظرون ضد الاستعمار في الخفاء، كما اكتشف الروايات التي توالت بعدها لا سيما روايتي" الحريق" الصادرة سنة 1954 و "النول" سنة 1957 اللتان تعتبران امتداد لرواية الدار الكبيرة عن معاناة فئات من الشعب مثل العمال والحرفيين داخل المدن والفلاحين المستعبدون من طرف المعمرين من الأرياف، فمنهما اختلفت المهنة ولكن الوضع المزري طال الجميع دون استثناء.

أدهش التوجه الروائي الجديد الذي قاده" محمد ديب" الاوساط الفرنسية التي اعتبرت أن التلميذ قد تعلم الدرس وهو الآن ينتفض ضد معالمه فقد استعمل محمد ديب لغة فرنسا الاستعمارية التي أرادت من خلال تلقينها للجزائريين أن تكون بديلا لهم عن لغتهم الأم، سلاحا يكشف زيف إدعائاتهم أمام العالم أجمع، ويعكس حقيقة الظلم والعدوان الذي يتعرض له الشعب الجزائري وبهذا سمي التيار بأدب المقاومة[26].

وقد لقي استنكارا شديد لدى اليمينيين بينما احتفل اليساريون واعتبروه تأصيلا واضحا للغة الفرنسية حتى أضحت صوت الشعب ومنقذه، ويبدو ذلك جليا من خلال قيام دور النشر الفرنسية بإصدار هذه الروايات وتبينيها أدبيا وثقافيا حتى صارت أكثر أدب مقروؤ عرفته تلك الفترة بين المثقفين الفرنسيين أنفسهم، وقد سارت على دربها العديد من الروايات نذكر منها رواية " نوم العادل" لمولد معمري الصادرة لسنة 1955 الذي ينقلنا لنعايش حالة البؤس والحرمان التي عاشتها القرى والمداشر القبائلية ورواية " نجمة" الصادرة لسنة 1956 التي يتناول فيها كاتب ياسين مظاهر الاستغلال والظلم الذي مارسه المعمرون على أبناء الأرض

[26] عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغاربية، 1986، ص 99

ويصور فيها مجازر 08 ماي 1945 التي قمع فيها المستعمر بوحشية المتظاهرين من اجل الحرية والعدالة واعتبرت نوعا من الكتب التي تسبق الثورات وتخطط لها[27].

رسمت هذه الروايات الصورة التي آلت إليها الجزائر تلك الفترة ولتوضح الرؤية حول الأحداث التي ساهمت في اندلاع الثورة التي فسحت المجال النضال العسكري وأعطت مفهوما جديدا للدفاع عن الحرية المغتصبة، والذي كان على ساحات المعارك التي دارت رحالها في كل مناطق الجزائر، ولم يتباهون الكتاب عن مواكبة الحدث من خلال تصوير وقائع الثورة المسلحة وتقديم نصائح من صور المقاومة الشعبية كان أبطالها من كل فئات المجتمع الجزائري وكذا تخليد تضحيات الشعب وكشف أبشع التعذيب والاعتقال والقتل والتهجير التي تعرض لها ومثالنا في ذلك رواية" الانطباع الأخير (1958) التلميذ والدرس (19609 ورصيف الأزهار لا يجيب (1961) ورواية " ضيف إفريقي محمد ديب (1959)

إن الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وعن الرواية بصفة خاصة كونها الجنس الأدبي الذي اتخذه الجزائريون أداة للتعبير عن آرائهم ومشاعرهم يضفي إلى الإشارة إلى الإشكالية التي عنى منها هذا الأدب والمتعلقة بهويته وأصالته.

فاللغة التي كتب بها هذا الأدب هي التي جعلت البعض يعتقد أنه أدب فرنسي وهو الأمر الذي أوقع الخلط بين الروائيين الجزائريين ونظرائهم الأوروبيين ممن ولدوا في الجزائر وجعلوها موضوعا لإبداعاتهم من أمثال ألبير كاموا وجون سيناك وغيرهم حتى أن بعضهم تناولوا مواضيع جزائرية أبدوا من خلالها اهتماما أصيلا بمشاكل الجزائريين[28]، فالفارق بين الفئتين ظل واضحا فاستعمال لغة مشتركة وهي الفرنسية لم يوحد وحدة وتماثل بين الكتاب الجزائريين والفرنسيين ولا يمكن هذا الاختلاف في الأساس أو الخلفية التعليمية التي تعتبر متماثلة غالبا بالنسبة لكل الفئتين.

---

[27]أمين الزاوي ، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، تطور علاقة لإنتاج الروائي بالإيديولوجية 1830 إلى 1982. ماجستير 1963 ، ص 320.

[28] عايدة أمينة أديب، تطور الأدب القصصي في الجزائر (1925–1967) تر: محمد صقر ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، 1962، ص 53.

المحاضرة التاسعة :

رواية ما بعد الاستقلال(ما بعد الكولوتيالية)

لم يكن الاستقلال مرادفا لنهاية الأدب النضالي ،فالأدب يتلون حسب حالات السلم والحرب ولكن الثورة التحريرية قد ألقت بطلا لها على رواية التي تلت استقلال الجزائر بفرنسا، فلم تبرح تعالج قضايا الثورة وتصور مآسيها وتؤرخ لفترة زمنية عصيبة غيرت ملامح الشعب إلى الأبد وقد وصف هذا الاتجاه بكونه منحازا إلى الثورة ومتأثرا بها ونذكر أمثلة عن روايات فترة الستينات رواية: أطفال العالم الجديد (1962) لأسيا جبار ورواية الأفيون والعصا(1965) لمولود معمري ورواية أصابع الجهاد (1967) لحسين بوزاهر ورواية أسلاك الحياة الشائكة لصالح فلاح، (1962) وقد ساهمت هذه الروايات في تعميق الإحساس بالوعي الوطني والإشادة بأمجاد الثورة وتضحيات الشعب.

ولعل أهم ما ميز فترة الستينات غياب مالك حداد عن ساحة الأدبية غياب أراد به أن ينادي بنفسه عن تيار الكتابة باللغة الفرنسية إلى استعان بها لمحاربة المستعمر ولم يعد هذا الشيء قائما بعد أن نالت الجزائر استقلالها باستثناء بعض الأشعار المتفرقة[29].

وكان اختيار الكتاب الجزائريين العيش خارج الجزائر بعد سنة 1965 التي شهدت الانقلاب العسكري الذي قاده هواري بومدين على نظام الرئيس بن بلة بحجة عدم توفر المناخ الديمقراطي للتعبير بحرية عن آرائهم وقد عرف أدب تلك الفترة المنشور في فرنسا أدب النزعة الاحتجاجية الاجتماعية والسياسية حيث ندعوا بتحول الحكم على يد العسكر، هن اهداف الثورة ومسارها النضالي وانتقدوا الأوضاع الاجتماعية السيئة التي عاشها الشعب ونذكر من هذه الروايات" رقصة الملك" (1968)" و" إله أرض البربر" (1970) بمحمد ديب ورواتي التطليق (1969) وضربة شمس (1972) لرشيد بوجدرة وقد سعى هذا الأدب إلى

[29] دواوين مالك حماد الشعرية الشقاء في خطر، 1965-1961.

توجيه الجماهير إلى واقع أدبي أفضل لمسايرة الثورة الاشتراكية من اجل خلاص الأمة من الجهل والمرض والتخلف الذي ورثه عن الحقبة الاستعمارية.

استطاع الكثير من الروائيين إنتاج نصوص رواية تحمل تجربة عميقة بالفاجعة التي ألمت بالجزائر وعالجت موضوعات غاية في الأهمية والتعقيد مثل الموت والحياة والانتماء والوطنية والدين وقد اختلف معالجة الكتاب لهذه القضايا كل حسب قناعته وأزخت لإنسان جديد يختلف عن الشاعر المناضل خلال الثورة التحريرية أو العامل البسيط المقهور لدى المستعمر أو الفلاح الجزائري أيام الثورة الزراعية أو حتى المناضل الحربي أثناء الحراك الاشتراكي، إنه إنسان جديد يقف في مواجهة تناقضاته وينمو وعيه يوما بعد يوم ليجيب عن الأسئلة المرتبطة بالوجود والحياة قياسا بحجم المحنة التي يعيشها.

إن الرواية قد تمتد عبر الزمن لنستوحي قصصها ونحول بكل علو وتسامي التجربة الواقعية الى تجربة إبداعية تمتزج بالخيال والفنية لكن ما حدث في الجزائر العشرية السوداء لم يكن ليغري الكتاب بالكتابة بقدر ما كان يجبرهم عليها لأنها أصبحت الملاذ الآمن الوحيد لهم ليعبروا عن آلامهم وآلام مجتمعهم محاولين البحث عن الحقيقة وفهم الواقع وفق رؤى متعددة وصلت في بعض الأحيان إلى حد التناقض.

ويحلينا تمركز موضوعات الرواية التسعية حوله هو المجتمع والأموال التي تنهكه إلى وحدة التجربة العامة وهي تجربة العنف الشاملة.

وقد استعمر هذا التوجه طوال فتة نهاية الستينات والسبعينات فقد حمل الكتاب على عاتقهم مهمة رصد مخلفات الاستعمار التي انعكست سلبا على المجتمع ونقد الأوضاع الاجتماعية القاسية التي يتخبط فيها الفرد الجزائري وقد طفت إلى السطح موضوعات أخرى تجسدت من خلالها شخصيات روائية تعاني أزمة الهوية والانتماء مثل اشكالية الهوية الوطنية الجزائرية والثقافية الأصلية المغيبة من خلال روايات " ذاكرة الغائب" (1974) المنفى والحيرة (1976) لنبيل فارس أو معالجة قضية الهوية الأمازيغية من خلال رواية

الطاهر جاووت (الباحثون عن العظام)[30] (1984)، أو رواية العبور (1952) لمولود معمري. ولا تغفل الروايات التي ظلت على نسقها الأول والتي صدرت في فترة السبعينات والثمانينات والتي لازمت موضوعات الثورة والتحرر وأخرى أخذت على عاتقها تسليط الضوء على الأوضاع السياسية والاجتماعية بغرض تحسين الواقع المعيشي ورصد تهن للشارع بالإضافة إلى موضوع السيرة الذاتية الذي ظل حاضرا على الدوام في الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

ج- رواية الأزمة:

أخذت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والصادر أواخر فترة السبعينات والثمانيات من القرن الماضي على عاتقها مسؤولية محاربة الظواهر التي شوهت المجتمع آن ذاك وتفشت فيه مثل الانتهازية والرشوة والجهوية وغيرها، وميزتها مسحة إيديولوجية دافع قفيها كل كاتب عن آرائه ومبادئه وتوجيهاته أما في التسعينات فقد برز الخطاب السياسي في أغلب الكتابات الروائية وأضحت الرواية آنذاك ساحة تعارك فيها مختلف التيارات وبرزت تأثيراتها على فئات المجتمع وما ألت إليه الأوضاع في الجزائر ففي الخامس من أكتوبر سنة 1988 خرج الجزائريون في مظاهرات عارمة بسبب ظروف العيش المتدنية والبطالة واللا مساواة التي عمقتها سياسة الحزب الواحد وتسببت فيها بشكل كبير الأزمة المالية العالمية التي تضررت منها اقتصاديات دول العالم في تلك الفارة وطالب المتظاهرون بتحسين الأوضاع المعيشية ودفع عجلة التنمية ورفعوا شعارات تطالب بالتغيير وهو الأمر الذي يتحقق مع صدور دستور 23 ماي 1988، الذي فتح المجال للتعددية الحزبية السياسية بعدما اهتزت المشروعة التاريخية للحزب الحاكم نتيجة اتساع الهوة بين السلطة والمجتمع وعجزها عن تلبية متطلباته فنظمت على اثر ذلك انتخابات المجالس الشعبية التي اكتسحتها الأحزاب المحسوبة على التيار الإسلامي وواصلت هذه الأخيرة صعودها حتى تحقيقها نسبة كبيرة في الانتخابات التشريعية.

[30] كاتب هدى إحدى الروايات التي اتسمت بالرمزية والغموض ولكن بلهجة أقل حدة لمعالجة أزمة الهوية الوطنية

انتخابات حصلت فيها تلك الأحزاب على أغلبية أعقبتها واقعة إلغاء الانتخابات وتصاعد المد الإسلامي الذي سعى إلى استعادة مكانته المسلوبة مدفوعا بالرغبة في الانتقام من السلطات التي كبحت زحفه نحو السلطة.

ساد جو من العصيان وعمت الاضطرابات البلاد في صيف 1991 فأعلنت على إثرها حالة طوارئ التي أخضعت البلاد للحكم العسكري وسقطت الحكومة الثانية التي تأسست سنة 1968 لينتقل بعدها الرئيس في شهر جانفي 1992 ويغتال من ناب عنه وهو رئيس المجلس الأعلى للدولة" محمد بوضياف" في جوان 1992 أحداث حولت العنف السياسي إلى عنف هوي استمر عشرية كاملة. ولعل أهم الأمثلة التي واكبت الأحداث وصورت الوقائع نجد روايات رشيد ميموتي" شرف القبيلة" [31] (1989) رواية حزام الغولة (1990) ورواية اللعنة (1993) واستلائهم على قسم الاستعجالات في مستشفى مصطفى باشا بعد موجهاتهم مع قوات الامن ما اكتسب هذه الروايات وأخرى جاء بعدها اسم رواية الأزمة المحنة أو حتى الأدب الاستعجالي بشكل عام.

إن السبب الرئيسي وراء تسمية الروايات التي صورت العراك السياسي والاحتلال الهوي الذي تلاه لاحقا في فترة التسعينات باسم الأدب الاستعجالي هو أن العديد من الكتاب في نوع من التسرع والتبسيط واتسقوا وراء الأحداث المهولة والمتسرعة فجاءت أعمالهم أقرب إلى التصوير الفوتوغرافي والشخصيات الصحفية منها إلى الكتابة الفنية الراقية وسميت برواية الأزمة لأنها عكست الواقع التأزم وعايش الأزمة التي مرت بها الجزائر طوال عشرية كاملة كأنها شخصت منابع الداء ووصفت أهوال المحنة التي عصفت بالشعب وزعزعت أمن الدولة واستقرارها مكان هذا الأدب صوت الشارع الذي يفرق كتب للمثقف لينقل معاناة من لا تسمع أصواتهم فأصبح بذلك الكاتب مستهدفا من طرف الجماعات المسلحة التي أبت إلا أن تغتال أجساد البشر وفن انعكاس ظلهم داخل الروايات

[31] صورت هذه الروايات سلوكيات مسؤول وإطارات الدولة، التي اتسمت تصرفاتهم بالتعاون الذي شجع على إثار الانتهازية والرشوة والجهوية

المحاضرة العاشرة :

علاقة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بالمجتمع:

إن الأدب العربي يزخر بكتاب روائيين كثيرا كتبوا في الرواية بلغات مختلفة سواء الانجليزية أو الفرنسية حيث أن بالبداية الأولى للرواية في الجزائر كانت باللغة الفرنسية وهي نقطة انطلاق لهذا الفن فيها، حيث توجد مجموعة من الأدباء من بينهم مولود فرعون،، كاتب ياسين، محمد ديب، وغيرهم الذين برعوا في الكتابة الروائية باللغة الفرنسية في الجزائر.

فقد كان للأوضاع الاجتماعية والسياسية التي عاشها الشعب الجزائري آنذاك أثر كبير على الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ممثلين بذلك صوت الشعب ونقد الواقع المزري والمعاناة التي يعيشها الفرد الجزائري، فجعلت هذه الأوضاع مادة دسمة للروائيين من اجل الإبداع والتعبير عن آرائهم وقول كلماتهم فكانت أعمالهم مساندة للشعب وبمثابة سلاح من أسلحة الثورة وفضح المستعمر ونقل مأساة الشعب والحياة المزرية التي يعيشها.

إن الرواية باعتبارها جسدا أدبيا في الأكثر استيعابا للواقع وقضايا المجتمع والوسيلة الأمثل للتعبير عنها فالكتابة الرواية هي انعكاس للواقع فمنذ ظهورها كان هدفها الأول والأخير هو تقدير الواقع بكل تحولاته وجوانبه المختلفة إذ تعتبر الرواية النوع المسيطر أو الغالب عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية بحيث ارتبط ظهور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بتواجد الاستعمار الذي كان له الأثر البالغ خاصة على المجتمع الجزائري فجاءت الرواية الجزائرية المكتوبة باللسان الفرنسي للرد على الاستعمار وجسدت مظهر من مظاهر المقاومة والدفاع فالأدباء الجزائريون ذوي اللسان الفرنسي يجعلون في أعماقهم هموم المجتمع ما جعلهم يعبرون في أغلب الأحيان عن الحقيقة الاستطانية وتختلف رؤيتهم تماما عن الكتاب الفرنسيين فقد اتخذ الجزائريون الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية كأداة

للتعبير عن آرائهم ومشاعرهم فهي تعتبر كتابات مقتبسة من الهوية الجزائرية متحمل تقاليد الشعب الجزائري وتتناول حياته اليومية وتعبر عن آلامه وأماله وما يطمح إليه[32].

لقد كان الاستعمار الفرنسي على الجزائر والذي امتد من (1830-1962) أثرا بالغا على المجتمع الجزائري بنواحيه المختلفة ومختلف المظاهر الاجتماعية التي عانت منها الجزائر لا فترة الاستعمار.

فالأدب الجزائري على وجه العموم والرواية الجزائرية على وجه الخصوص احتضنت تصوير الواقع الاجتماعي المرير الذي صبغ معاناة عديدة تمثلت في الظلم والفقر والجوع والبؤس وبهذا فقد كان الروائيين الجزائريين شهودا على أوضاع مجتمعهم ومتفاعلين مع ما يجري حولهم.

فقيل الحديث عن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية يجد الباحث نفسه مضطرا للتعرض لأديب الجزائري الذي اتخذ اللغة الفرنسية أدة للتعبير عن مجتمعه فلقد ظهر العديد من الروائيين ليعبوا عن واقعهم متخذين اللغة الفرنسية أداة لتعبير عن آمالهم وأفراحهم، وأدبهم كتب بلغة أجنبية لكن مضمونه وأصله بروح جزائرية، فهم لم ينسلخوا عن مجتمعهم فعندما أتيحت الفرصة للروائيين الجزائريين ليعبروا عن أنفسهم انصب اهتمامهم الأول على المشاكل الاجتماعية التي تواجه شعبهم وركزوا بشكل خاص على مشاكل الفقر[33]، باعتباره مرض اجتماعي خطير منه تأتي كافة الشرور والمشاكل ولما كانت الأغلبية الساحقة من الجزائريين فقد عانوا مرارة الجوع والحرمان اليومي الذي أدى بالكثيرين منهم إلى الموت وقد هاجر العديد من الجزائريين إلى فرنسا للعمل فيها لكي ينفعوا عائلاتهم من حالة الفتك والفقر كما كان للفقر تأثيرا كبيرا على التربية أيضا حيث أعاق إلى حد كبير تطور التعليم في البلاد نظرا لانعدام المصاريف المناسبة للتعليم لدى الأولياء الأبناء....

---

[32] نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 112، المجلة نفسها، ص 72

[33] عايدة اديب باهية، تطور الأدب القصصي الجزائري، 1925-1967، ترجمة الدكتور محمد صقر ديوان المطبوعات الجامعية، ص76

وسواء عانى الروائيين الجزائريين حالة الحرمان والفقر أم لاحظوها في مجتمعهم فإنهم لم يبتغوا ولا ريب جامدين تجاهها فقد جعلوا أنفسهم بصورة تلقائية شهودا على الأوضاع التي يحياها شعبهم.

وباعتبار أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية كانت تعكس منذ نشأتها إلى اليوم آمال وآلام أصحابها فإذا رجعنا إلى الأعمال الأولى التي ظهرت في بدايات الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وبالضبط في سنوات العشرينيات من القرن العشرين كانت تتمحور حول فكرة أساسية وهي محاولة التعايش مع الآخر تبعا لسياسة الإدماج فنظرا للصراع الحاد الذي كانت فرنسا سببا في تشويه نادت هذه الفئة من الأدباء بصورة التعايش مع المستعمر باعتباره مصدر الحضارة والقوة التي استخلصها من واقع الجهل الذي نعيش فيه، هذه كانت أفكار هؤلاء والتي تجسدت بوضوح فغي كتاباتهم الروائية رغم أن لم يقتنع اقتناعا كليا بفكرة الإدماج اذ نجد شكري خوجة في رواية" العلج أسير البرابرة"

بحيث يصور لنا معاناة المثقف الجزائري المتشبع بالثقافة الفرنسية والذي يجد نفسه مهمشا من قبل المجتمع الفرنسي من جهة ومن جهة أخرى لا يلقى التجاوب مع أفكاره في المجتمع الجزائري الذي يطبقه التخلف"[34]

فهو يشعر أنه يقف على الهامش لكن هذا الموقف لا يشمل كل الفئة الداعية إلى الإدماج فها هو محمد ولد الشيخ" يصرح للعيان أنه قد أصبح واضحا أن البلاد استرجعت السلك والعيشة الهنيئة تحت حمى الحكم الفرنسي فلا وجود لمواطن عربي يقصد الجزائر لا يشعر اتجاه الوطن الأم بالعرفان للجميل السخي وخاصة بعد إخراجه من الظلمات إلى النور،[35] فهو يعتبر فرنسا بلده الأم التي خلفته من الظلمات الجهل في الجزائر.

تضاف إلى هذه المواضيع السائدة في بدايات الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية قضية الزواج المختلط التي طرحت بكثرة في تلك الفترة والمراد منها إسعاد فرنسا وإرضائها

[34] ينظر: أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية دراسة سيوسيو النقدية الملحق ، ص 45

[35] ينظر: احمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 214.

ومن تلك الأعمال نجد "مريم بين النخيل" التي اعتبرت أكثر النماذج الروائية المطابقة لأطروحات الإيديولوجية الاستعمارية بسبب نهجها المؤيد لسياسة التوسع الاستعمارية وأكثرها تبشيرا بفكرة الإدماج عن طريق الزواج المختلط الذي قدمه محمد ولد الشيخ" كوصفة سحرية لكل مشكلة اختلاف الأعراف[36].

كما انبثق عن المدارس المختلطة في الجزائر نخبة مثقفة من الجزائريين الذين اتسعت نظراتهم للعالم وانجلت بصائرهم عما يحدث لبلادهم ، فاتخذوا من اللغة الفرنسية التي أرادوا أن تكون بديلا عن لغتهم الأم وأن تعزز انتماءاتهم لفرنسا وسيلة لتحدث بلسان الشعب والدفاع عن حقوقه وتحصيل حريته من خلال كتابات قصصية وروائية تحاكي الواقع وتفضح زيف الإدارة الفرنسية في الجزائر وما ترتكبه في حق الشعب الجزائري فكانت جل الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية في هذه الفترة تحاكي الواقع المرير الذي يعيشه المجتمع الجزائري فمثلا نجد بأن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية تمكنت من تسليط الضوء على بعض الآثار السلبية التي انتشرت في المجتمع نتيجة الاحتكاك بالثقافة الدخيلة منها الإدمان على الخمر ولعب القمار الظاهرتان التي عالجتهما تبعا لروايتي زهراء إمرآة المجمي" Zahra la famme de la mineur والتي تمثل فرحة في وجه الظلم الاجتماعي الذي كان الجزائري يلقاه في حياته اليومية واحتجاجا على عدم المساواة في الحقوق بين العامل الجزائري وزميله الأوروبي لعمل معه في المنجم نفسه"[37]

شكلت هذه الروايات بنية الأساس لاتجاه جديد شق طريقه داخل الأدب الجزائري باللسان الفرنسي فقد لوحظت طفرة هامة في نوعية المضامين التي حملتها الروايات، هذه الأخيرة أخذت على عاتقها تصوير واقع البؤس والحرمان الذي يعيشه الجزائري وتسليط الضوء على الوجه الحقيقي للاستعمار الفرنسي فعقب الحرب العالمية الثانية ومجازر 08 ماي 1954 استفاق الشعب الجزائري من غفوته وتغيرت نظرته للعالم الغربي خاصة فرنسا التي رسمت معالم للتحضر والتطور للخروج من بؤرة التخلف لدى الجزائريين بعدما خلفت

[36] محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية الهيئة المصرية للكتاب مصر، 1996، ص 104.

[37] أحمد منور، ملامح أدبية دراسات في الروايات الجزائرية، دار الساحل للنشر والتوزيع، (د،ط)، (د،ت)، ص 24

45 ألف شهيد جزائري، وبما أن الرواية مرآة عاكسة للواقع والمجتمع فقد ازدهر إنتاجها الروائي وضبطت طريقها على واقع حي وعلى إيقاع الحياة والموت وغيرت كل مضامينها التي تدور حول الاندماج والمساواة والعدل والزواج المختلط... فالأدب الجزائري المكتوب باللسان الفرنسي تعدى كل هذا وحمل على عاتقه اقتحام العالم الداخلي للشعب الجزائري وتناول همومه وآلامه من الثالوث الأسود (الفقر، الجوع، التشرد) ومن أهم الروايات التي شكلت منعطفا حاسما في تاريخ الرواية الجزائرية التي تجاوزت الصورة النمطية المقدمة سابقا عن العملاقة المثالية بين الإدارة الاستعمارية والأهالي لتغوص في واقع الشعب الذي كابد القهر لسنوات طويلة هي رواية الدار الكبيرة le grange maison سنة 1952 التي تصف الفقر والجوع السائد نتيجة الاحتلال وتكشف الستار عن فئة جديدة تسمى بالمناضلين الذين يعيشون بين أفراد الطبقات من الشعب وينشطون ضد الاستعمار الفرنسي ثم تلتها رواية الحريق l'incendié سنة 1954 لقد صرح محمد ديب فيها قائلا " لقد استولوا على كل شيء إنهم يريدون أن يصبحوا سادة أيضا لقد جعلوا من واجبهم الحقد علينا وها هم أولا ينتزعون كل يوم قطعة معاناة من لحمنا فيبقى مكانها جرح عميق ليسيل من حياتها" وراية النول 1957 حيث يعبر عن معاناة العمال والحرفيين والفلاحين من طرف المعمرين وعلى قساوة الحياة بحيث استعمل محمد ديب لغة المستعمر الفرنسي وحاربه ليكشف كذب أقوالهم وادعاء وتبيان حقيقة الظلم والقهر والمعاناة الذي يعيشها المجتمع الجزائري.

استعمل محمد ديب لغة المستعمر الفرنسي وحاربه بها ليكشف كذب أقوالهم وادعاءاتهم وتبيان حقيقة الظلم والقهر والمعاناة فكان يقوم بتصوير دقيق لمجتمع والواقع.

كما نجد رواية مميزة للغاية للمفكر الجزائري العظيم مالك بن نبي" لبيك حج الفقراء" والتي تعد الوحيدة عنده وهذه الأخيرة هي بمثابة رواية اجتماعية ذات بعد واقعي وكذلك أخلاقي تصور سلوك وحياة الرجل التائب (إبراهيم) وبنفس الوقت تظهر حالة المجتمع الجزائري إبان الاستعمار وأوضاع أفراده من الرجل وإمرة والطفل وتصور العلاقات داخل الأسرة والمجتمع معا.

ونجد أيضا الروائي مالك حداد في ورايته" رصيف الأزهار لا يجيب" رواية تأهبك غزالة والشقاء في خطر" لقد تميزت روايات مالك حادا بإشباع عاطفي خاص رغم بساطة تراكيبها النحوية"[38]

حيث أنه كشف مظاهر البؤس والحرمان الاجتماعي التي آلت إليه الأوضاع في الجزائر وخاصة في فترة الحرب الكبرى التي عانى منها معظم فئات المجتمع.

وبالتالي فإن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية تبرز لنا" صور مختلفة لناس بمختلف اتجاهاتهم وهي تمزق الأقنعة عن وجود أولئك الذين يمثلون الطبقات المستغلة كما أنها تكشف بذلك عن وجود الأبطال الإيجابيين المناضلين"[39]، إ أن الأولية في موضوعات هذه الروايات كان لأناس يعانون من ثقافة العنف والاحتلال إضافة إلى عنف العادات والتقاليد المجتمع الجزائري.

كما نجد رواية نجل الفقير le fils de pauvre لمولود فرعون" الرواية التي طبعها على حسابه الخاص 1950 والتي كانت صرخة لفتى جزائري من منطقة القبائل كتب مولود فرعون عن الطفل الجزائري الناجح في دروسه على عكس الثورة التي يحبها المستعمر وهي صورة طفل في السوق أو الماسح الأحذية للمعمرين"[40]

وكذا روايته" الربوة المنسية" 1952 التي تبتدئ وقائعها في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتصور الوضع في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، ليعبر الكاتب فيها عن مآسي الشعب وأحزانه وبؤسه"

كذلك نجد مولود فرعون من خلال روايته" الدروب الدروب الواعرة" ضرب عصفورين بحجر واحد فقد صور الحالة الاجتماعية المزرية الصادرة عن الفقر في إحدى القرى، عن

---

[38] نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير الصراع اللغة الهوية، ص 225.

[39] سعاد محمد خضر، الادب الجزائري المعاصر منشور المكتبة العصرية، دط، 1967، ص 146

[40] نوال بن صالح الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير الصراع اللغة الهوية، مجلة المخبر أبحاث في اللغة الأدب الجزائري، العدد 07، جامعة بسكرة، 2011ن ص 223-224.

طريق شخصية البطل عامر هذا من جهة ومن جهة أخرى تناول ظاهرة أخرى وهي الهجرة نحو فرنسا هروبا من الواقع المتعفن وبحثا عن الرزق.

نستطيع القول أن كلا من" محمد ديب " و" مولود فرعون" اتكأ في سرد الأحداث على خلفية الحالة الاجتماعية التي يعيشها كل منهما وبالتالي استطاع تصوير الواقع تصويرا مباشرا خلافا للروائي" مولود معمري" الذي كان ميسور الحال ومن فقد استطاع أن يصور الواقع من وراء ضلال الرومنسية التي لطفت فضاضة الحياة الواقعية وقسوتها وذلك دون أن يشوه الوقائع الحقيقية"

فقد استطاع" معمري" رفقة معاصريه وبفضل مجهوداتهم من الالتزام بطموحات الشعب الجزائري ودعم الخروج عن إطارها يوما.

ولم يغفل الكتاب الروائيون عن تصوير أحداث الثورة التحريرية وكشف أبشع صور القتل والتعذيب والاعتقال... وتقديم صور بطولات المقاومة الشعبية وتخليد تضحياتهم وهذا إما ظهر جليا في روايات مالك حداد الانطباع الأخير la derniere impression سنة 1958 التلميذ والدرس l'élève et la leçon ورصيف الأزهار لا يجيب.

في حين أسرت آسيا جبار أن تناقش في أعمالها الروائية موضوع حرية المرأة متباعدة بذلك عما يدور في حرب التحرير وقد تجسدت هذه الرواية الخاصة في روايتها " القلقون" والتي ضمت فكرتين: هما التحرر والحرية من خلال الشخصية الرئيسية " دليلة" التي سئمت من قيود عائلتها المحافظة فلحقت بحبيبها بفرنسا فبحث عن الحرية التي افتقدت في وسط مجتمع خلقها بقيود العادات والتقاليد[41]، فآسيا جبار أرادت من خلال هاته الرواية العطش أن تأخذ بيد المرأة الجزائرية إلى التحرر على الطريقة الأوروبية.

وقد نهج العديد من الروايتين نهج محمد ديب بحيث نهج مولود معمري في روايته نوم العادل الصادرة سنة 1955 التي تحدث فيها عن البؤس والحرمان والبطش والتعذيب في

[41] ينظر: آسيا جبار، القلقون منذر الجابري منشورات دار الاتحاد، بيروت، لبنان، ص 194.

القرى القبائلية وأيضا رواية نجمة Nedjma سنة 1956 لصاحبها كاتب ياسين حيث يتناول فيها مخاطر الظلم والعنف والاستغلال الذي مارسه المعمرون على الشعب الجزائري، وبصورة أيضا أحداث مجازر 08 ماي 1954 التي استحقر فيها المستعمر المتظاهرين من أجل الحرية والعدالة وقد اعتبرت كتابات كاتب ياسين من الكتب التي تسيق الثورة وتخطط لها[42]. أما بعد الاستقلال لم تأخذ هذه الفترة اتجاها مغايرا من حيث المضمون إذا كانت تقوم بتصوير أحداث ومشاهد من صميم المجتمع والثورة التحريرية والتعبير عن مأساة الشعب تصوير معاناته، ومن بين الروايات أو الأعمال التي انتمت إلى هذا الاتجاه رواية qui se suivant la mer 1962 لمحمد ديب غير أنها كانت بأسلوب مغاير حيث لجئ فيها إلى استعمال الرمز والتكييف الشديد للأحداث، ليعبر بذلك عن أجواء التوتر والرعب التي كانت تسود المدن، وعن حالة الخراب والدمار التي آلت إليها القرى والمداشر.

وقد وصف هذا الاتجاه الثوري بكونه منحازا للثورة ومتأثرا بها، كذلك نذكر أطفال الجديد Les enfant du nouveau mande 1962 لآسيا جبار شملت على مشهد عمليات المقاومة الفدائية داخل المدن ورواية " الأفيون والعصا" 1965 لمولود معمري، حيث عبر فيها على ظلم المستعمر في تهديم القرى والمداشر وتهديم المساكن الشعب على رؤوسهم ووصف الحياة الصعبة داخل المعتقلات والسجون وتنظيم عمليات الهروب منها كما وصف في روايتين " أصابع النهار" 1967 لحسين بوزاهر les cinq doigts du jour و رواية أسلاك الحياة الشائكة لصلاح فلاح 1962"

ولعل ما يميز النصف الثاني من الستينات مغادرة الكتاب الجزائريين واختيار العيش خارج الوطن خاصة بعد سنة 1965 وقد عرف أدب هذه الفترة المنشور بفرنسا بأدب النزعة الاجتماعية والسياسية حيث انتقدوا الأوضاع الاجتماعية السيئة التي يعيشها الشعب ونذكر من هذه الروايات روايتي" رقصة الملك" la dance du roi" 1968 و" إله أرض البربر dieu en barbare 1970 لمحمد ديب وروايتي " التطليق 1969 وضربة حظ" 1970

[42] ينظر: أمين زاوي: الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، بحث في تطور علاقة الإنتاج الروائي الإيديولوجية من 1830 إلى 1982 ماجستير 1883 دمشق، ص 320.

لرشيد بوجدرة" وقد سعد هذا الأدب إلى توجيه الجماهير إلى واقع أدبي أفضل لمسايرة الثورة المشتركة من اجل إنقاذ الأمة من كل ما ورثته عن الاستعمار من تخلف وجهل وبؤس أما عن أعمال التسعينات فقد شهد المجتمع الجزائري أوضاعا صعبة على كل المستويات في ظل تزايد خطر الإرهاب الهمجي مما جعلتها فترة جدب أدبي بسبب العنف والخوف والهجرة، فالكثير منهم أجبر على الصمت تحت وطأة التهديد ومنهم من خسر حياته مقابل جرأته.

فقد استمر الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية طوال فترة التسعينات حاملا في طياته صوت شعبه إلى الآخر وتقرير معاناته من فقر وجهل وتخلف وكل مخلفات الاستعمار التي كانت دائما تنعكس سلبا على المجتمع

فبعد مظاهرات أكتوبر 1988 التي قادها الشعب الجزائري بسبب الظروف المعيشية المتدنية وتفشي البطالة واللامساواة والآفات الاجتماعية من رشوة وجهوية والانتهازية التي شوهت المجتمع آنذاك وجدت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية مسايرة لهذه الأوضاع إذ كثيرا ما عبرت عن هذه الظروف بشكل كبير وقد تجلت هذه الصورة لدى الكثير من الكتاب والروائيين لا سيما هذه الفترة " وتد أعمال لرشيد ميموني) القصصية والروائية الأخيرة أبرز النماذج في هذا الصدد مثل نماذجه في مجموعة القصصية" حرام الغولة" 1990 ورواية اللعنة 1993.

ومنه نرى ان الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية أكسب الساحة الأدبية فارضة وجودها بعد كل الصعوبات التي واجهتها من تشكيك في هويتها إلى التغلغل من دورها لكن بعدما تتبعنا مسيرتها منذ نشأة وإلى غاية يومنا هذا تبين الدور الجليل الذي قامت به الرواية الجزائرية وإن كتبت بالفرنسية إذ لا يمكن التشكيك في فاعليتها سواء أثناء الثورة ينقل القضية الوطنية إلى العالم كافة أو بجهودها المتواصلة لبناء مستقبل أفضل بعد الاستقلال إلى يومنا هذا فالرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية كانت ولا تزال المرآت العاكسة لهذا المجتمع فقد أضفت الكثير للأدب الجزائري بل وأكثر من الرواية المكتوبة بالعربية بشهادة المجتمع.

المحاضرة الحادية عشر :

اشكالية الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

1-مفهوم الهوية الثقافية والاجتماعية واللغوية:

إن كتابة الرواية عمل واعي ومتخيل يرتكز على أحداث واقعية تؤثر في الكاتب وتدفعه للإبداع نص فني يستمد من الواقع صوره ولكنه يتأنى عنه من الخيال، إلى عوالم موازية تمنع النص، تفرده ونميزه عن الواقع وعن غيره من النصوص، ولما كان لكل رواية هوية ترتبط غالبا باللغة التي كتبت بها والكاتب الذي أبدعها والفضاء الزمني والمكاني الذي يدور فيها أحداثها بالإضافة إلى جمهور القراء الذي يستطيع فك طلسمها وفهم مكوناتها فإن بالإمكان تحديد الهوية والثقافة التي تنتمي إليها الروايات ولكن ليس كلها لأن الرواية موضوع الدراسة (أي الرواية التي أبدعها كتاب جزائريون بالحرف الفرنسي) يطرح تضعيفها إشكالية لدى النقاد والباحثين من حيث هويتها وانتماءها ولفهم ذلك ينبغي أولا البدء بتحليل ماهية الهوية وتقاطعها مع الثقافة وتحديد خصائصها ومميازتها ومظاهرها في النص الروائي.

يتميز مفهوم الهوية بغموضها وتعدد معانيه وهذا لأنه مفهوم حديث وقد تبلورت فكرة الهوية في خمسينات القرن الماضي في الولايات المتحدة، عندما عانت من مشاكل ناجمة عن اندماج المهاجرين الجدد في المجتمع الامريكي بتنوع خلفياتهم الثقافية، فجرى البحث عن مفهوم ديناميكي للهوية لتجاوز تلك العقبات ولتنصهر ثقافتهم العديدة في بوتقة الهوية القومية الواحدة.

مفهوم الهوية: تعتبر الهوية مجموعة من التفاعلات المتبادلة بين الفرد ومجتمعه وتتميز الهوية الاجتماعية للفرد بمجموعة من انتماءاته كالانتهاء إلى طلقة جنسية أو عمرية أو اجتماعية... الخ، كما أنها تسمح للفرد التعرف على نفسه في المنظومة الاجتماعية ويمكن للمجتمع من التعرف عليه.

لغة: يشتق المعنى اللغوي لمصطلح الهوية من الضمير "هو" اما مصطلح" الهو" فهو يتركب من تكرار" هو" فقد تم وضعه كاسم معرف" ب" ال" ومعناه الاتحاد بالذات، ويشير مفهوم الهوية إلى مجموع القيم الشخصية والتقاليد والعادات والمقومات، وجاء في المعجم الوسط الصادر عن مجتمع اللغة العربية بأن " الهوية" فلسفيا لحقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره وهي بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى الشخصية أيضا).

أما في اللغة الانجليزية فتعني الهوية: تماثل المقومات أو الصفات الأساسية في حالات مختلفة وظروف متباينة وبذلك يشير إلى الشكل التجميع أو الكل المركب لمجموعة من الصافات التي تكون الحقيقة الموضوعية لشيء ما، والتي بواسطتها يمكن معرفة هذا الشيء وغيره على وجه التحديد)[43].

جاء في قاموس المنجد في اللغة العربية أن معنى الهوية هو" حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشملة على صفات الجوهرية[44]، وذلك منسوب حسب ميلها في اللغة العربية من الضمير المنفصل هو الذي يدل على الذات الشيء أو الشخص المستقلة عن الذوات الأشخاص الآخرين[45].

ومعنى ذلك ما يميز شيء ما بسمات وصفات خاصة عن شيء آخر أي ماهية الشيء وجاء في لسان العرب" هوية تصغير هوة وقيل الهوية بئر بعيدة المهواة وعرشها سقفها المغطى عليها بالتراب صغرته ب واطئه فيقع فيها ويهلك وقيل الهوية لبئر[46]

وهي بهذا المعنى تشير إلى ثبات الشيء على الرغم مما يطرأ عليها من تغيرات.

---

[43] رشدي احمد طعيمة، الثقافة العربية الإسلامية بين التأليف والتدريس، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998، ص 35

[44] لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، الطبعة 8 ، بيروت، مادة هوية، ص 565-564.

[45] أحمد منصور الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطورهن وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.

[46] ابن منصور لسان العرب، تج: المستقبل للنشر الإلكتروني بيروت، لينان، 1995، ص 4768.

والهوية في قاموس المحيط هواء الجو والهاوية التي تؤدي بك إلى السبيل من مكانك كما أقول أيضا الشيء الذي يتخلله فجو[47].

فالهوية هنا تجعل أكثر من معنى فتدل على الجو القريب من سطح الأرض والذي يلاصقها والهواء الذي تستنشق كما تدل على الحفرة أو الفجوة أو الفراغ البعيد القرار.

والتقليديون يرون الهوية الحقيقية قارة وأساسية لا يتعر بها الشك بينما يرى ما بعد الحداثين أن الهوية أقرب إلى الوهم، وبالتالي هي فكرة خيالية[48].

المفهوم الاصطلاحي: يقول ابن رشد في كتابه ما بعد الطبيعة " إن الهوية تقال بالترادف للمعنى الذي يطلق على اسم الموجود وهي مشتقة من "الهو" كما تشتق الإنسانية من الإنسان"[49]، وبهذا يعود بنا إلى مفهوم الهوية أو الذاتية في منطق أرسطو باعتبارها تمثل الشيء مع ذاته، فهوية الإنسان هي جوهره وحقيقته ولما كان شيء من الأشياء لثوابت والمتغيرات فإن الهوية الشخص هي ثوابته التي تحدد لا تتغير، تتجلى دون أن تخلي مكانها لتقبضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة.

تجمع الهوية ثلاثة عناصر أساسية هي: العقيدة التي توفر رؤية للوجود واللسان الذي يجري التعبير به والتراث الثقافي الضارب في التاريخ، وهي نفس السياق يرى جاك يبرك[50]" إن الهوية تحدد من خلال:

- الاستمرارية والتحول لأنه لا توجد هوية من دون تعبير.
- في الهوية يلتحم الذاتي مع الموضوعي من خلال تبادل كل من الأنا والآخر النظرة إلى هويتهم.
- الهوية نشطة وحركية.

---

[47] الفيروز أبادي القاموس المحيط مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط8 ، 2005، ص 1348.

[48] سعج البارزتي شرفات للرؤية حول الحوكمة والهوية المركز الثقافي للنشر والتوزيع 2005، ص 25

[49] ابن رشد: تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو طالبة، تحقيق عثمان أمين، القاهرة، مصر، 1958، ص 11

[50] جاك بيرك، 1995/1910 هو مستشرق ومؤرخ ومترجم فرنسي.

- الهوية كلية أي مركبة تنقسم إلى عناصر وأجزاء مترابطة.
- تتميز الهوية بالتبادل بين أجزائها مع هويات أخرى في علاقة جدلية مات يجعلها متحركة وحية، فأما الهوية المستمر فتناقل خطواتها الكبرى الأجيال من جيل إلى جيل، وأما الهوية المتحولة فتشكل بواسطة التأثيرات التي تتلقاها، وتعتبر الهوية المرآة العاكسة لرسم الذات خشية الذوبان والاضمحلال إن الهوية ليست منظومة جاهزة ونهائية، وإنما مشروع مفتوح على المستقبل أي أنها متشابك مع الواقع والتاريخ[51].

خصائص الهوية:

1-عناصر مادية فيزيائية: الحيازات، الأسماء والملابس والمساكن.

- القدرات: القوة الاقتصادية والمالية والعقلية
- التنظيمات المادية: التنظيمات الإقليمية والدولية والمحلية.
- الإنتماءات الفيزيائية: الانتماء الاجتماعي والتنوع الجغرافي والسمات الفيزيولوجية.

2-عناصر تاريخية:

- الأصول التاريخية: الأسواق القرابة، القبلية.
- الأحداث التاريخية الهامة: التحولات السياسية، التنشئة الاجتماعية.
- الآثار التاريخية: العقائد، العادات والتقاليد

- عناصر ثقافية:

- الأثر الثقافي: الأديان والرموز الثقافية، أشكال التعبير المختلفة.
- الأثر المعرفي والسمات النفسية الخاصة، نظام القيم.

[51] شهيب عادل، مقال بعنوان الثقافة والهوية، إشكالية المفاهيم والعلاقة، موقع أزتروبس الثقافة، الهوية، إشكالية المفاهيم ، اطلع عليه بتاريخ: 2015/01/19 الرباط، http://www.ararthopos.com

عناصر نفسية اجتماعية:

- القيم الاجتماعية: الكفاءة والنوعية والقدرة
- القيم النفسية: نمط السلوك والقدرة على التكييف.

المحاضرة الثانية عشر :

- **العلاقة بين الهوية الثقافة:** يعد مفهوم الثقافة أحد المفاهيم المرتبطة بمفهوم الهوية والمتداخلة معها إلى درجة الاعتقاد بأنه لا وجود للهوية بعيدا عن الثقافة[52]، وتتم الإضارة إلى الثقافة في معظم الدراسات والأبحاث حول الهوية باعتبارها مرادفا لمفهوم الهوية ولذا نرى من الضروري أن نحدد ونعرف من علاقتها بالهوية وموقعها فيها.

يعتبر مفهوم الثقافة من المفاهيم الأكثر غموضا في كل اللغات لأنه يراد التعبير بكلمة واحدة عن مضمون شديد التركيب والتعقيد والتنوع[53]، كما يعتبر ملازما للعلوم الاجتماعية وهو ضروري لها إلى حد ما للتفكير حول وحدة البشرية من خلال التنوع بشكل يختلف عن التفكير المستند إلى البيولوجيا، كما أنه كلمة" الثقافة" فرنسية المنشأ.

ترتبط الهوية والثقافة علاقة وطيدة ولا يمكن الفصل بينهما، ومن هنا تبرز الهوية الثقافية كمحدد للتغيير بين تحن " وهم" وتبدو الهوية الثقافية أول ما يكسبه الفرد من محيطه ويحاول أن يتماثل ويجسدها.

وبعض النظريات تقول إن الهوية الثقافية هي الهوية الأساسية التي يبدأ بها البناء، ذلك لأن الانتماء للمجموعة العرقية هو أطول الانتماءات الاجتماعية وأكثرها جوهرية، ومن هذا تبدو الثقافة بالنسبة للهوية كاللباس بالنسبة للجسد فهي تصبح الهوية بعناصرها وتشكل صورتها لدى الآخر، فلو أخربت شخصا عن بلدك تشير في مختلف عادات وتقاليد وحتى معتقدات شعبك.

---

[52] أميرة كشغري، الهوية الثقافية بين الخصوصية والتبعية (مقاربة معرفية ، اجتماعية)، ورقة عمل مقدمة في برنامج الفعاليات الثقافية المصلحة لمعرض الرياض الدولي للكتاب، من الانترنت.

[53] عادل شهيب، الثقافة والهوية (إشكالية المفاهيم والعلاقة) ص 04.

قد تتعدد الثقافات في الهوية الواحدة، كما أن تتنوع الهوية في الثقافة الواحدة، وذلك ما يعتبر عنه في إطار الواحدة فقد ينتمي هوية شعب من الشعوب إلى ثقافات متعددة تمتزج عناصرها مشكلة هوية واحدة[54].

فعلى سبيل المثال تشكل الهوية الإسلامية من ثقافات الشعوب والأمم التي دخلها الإسلام سواء اعتقدته أو بقيت على عقائدها التي كانت تؤمن بها، فهذه الثقافات امتزجت بالثقافة العربية الإسلامية وأصبحت بذلك هوية إنسانية منفتحة وغير منغلقة وتعني العلاقة بين الهوية والثقافة علاقة الذات بالإنتاج الثقافي ولا شك أن أي إنتاج ثقافي لا يتم في غياب الذات.

- مفهوم الثقافة وخصائصها:

- **المفهوم اللغوي**: وردت في معجم لسان العرب في مادة" الثقافة" ما يلي:

" ثقف الشيء وثقوفا: خدمة ورحل ثقف: حاذق الفهم" [55] فلم يأتي لفظة الثقافة مع المعنى السائد اليوم وحولها، أي أن المعاني القديمة للكلمة اختلفت في المعنى الذي تقصد به اليوم.

- **المفهوم الاصطلاحي:**

يعرف ره. لويس الثقافة فيقول:" هي ذلك المجموع الكلي لما يكتسبه الفرد من مجتمعه، تلك المعتقدات والأعراف والمعايير الجمالية كتراث من الماضي ينتقل إليه بواسطة التعليم وغير الرسمي"[56]

أما التعريف الأكثر شمولية وشويعا في الدراسات الإنسانية والاجتماعية قدمه لنا –أ تايلر– E– Taykor حيث يقول: الثقافة هي ذلك الكل المركب المعتقد الذي يشتمل

[54] عبد العزيز التويجري، الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية، ص 09.

[55] ابن منظور: لسان العرب، مادة ثقف، اطلع عليه بتاريخ: 2012/02/02، الرابط،

[56]سعيدي محمد، مقدمة في أنثرولوجيا الثقافة الشعبية، دار الخلدونية، الجزائر، 2013، ص 10–11.

المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكسبها بوصفه عضوا في المجتمع"[57]

إذن الثقافة أنماط سلوكية معنية وتنظيم إقليمي للشعوب اضطلعت عليها وتناقلتها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها، إنها ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتغيرات والإبداعات التي تتطور، بفعل ديناميكيا الداخلية وقابليتها للتواصل و الأخذ والعطاء.

ونظرا لتعدد مفاهيم الثقافة وتشبعها قامت الأمم المتحدة بتبني تعريف شامل جاء به إعلان مكسيكو" إن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع السمات الروحية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا يعين أو فئة اجتماعية يعينها وهي تشمل الفنون والتقاليد والمعتقدات".

- خصائص الثقافة:

- الثقافة المكتسبة وليست وراثية.
- تنتقل الثقافة من جيل إلى آخر من خلال العادات والتقاليد والقوانين وعملية النقل تتم بالتعلم مع إضافة كل جيل لمسته الخاصة.
- الثقافة قابلة للتعديل والتغيير حسب الظروف الخاصة بكل مرحلة زمنية.
- ثمة علاقة وثيقة بين الهوية والثقافة فمن خلال هذين المفهومين الشاملين تتح مفهوم الهوية الثقافية التي تعتني بتجارب أهلها ومعاناتهم وانتصاراتهم وتطلعاتهم وأيضا باحتكاكها مع الهويات الثقافية الأخرى وتتحرك في ثلاث دوائر هي:

الفرد داخل الجماعة والجماعات داخل الأمة وصولا إلى الأمة بين الأمم الأخرى، وكل دائة لها ما يميزها وقابلة للتعدد والتنوع والاختلاف.

[57] سعيدي محمد، المرجع نفسه، ص 11

من خلال التعريفات المذكورة يمكننا القول أن الهوية بمعنى يحدد الفرد ويعطيه يشكل لا يقبل الجدل وتعتبر الخصائص والمميزات الثقافية جاملا للهوية الفردية والجماعية على حد سواء.

- **المكونات الثقافية للهوية:**

تختلف الهوية عن الثقافة داخل الوطن الواحد، فالهوية هي: ما يميز مجتمع عن غيره، رغم وجود تنوع واختلاف في بعض المكونات الثقافية المحلية لكن هناك ذاتية عامة تشكل الهوية الوطنية لأي مجتمع، فالكل يختلفون في الجزئيات والوسائل ولكنهم يتفقون عن الأهداف العامة لوطنهم الموحد، أما الثقافة فلا يشترط فيها أن تكون واحدة فقد تتنوع داخل المجتمع الواحد لأنها تشكل الرؤية الخاصة بكل فئة، فهناك ثقافة السلطة وثقافة المعارضة، الثقافة المحلية القديمة وثقافة العشيرة والطائفة..الخ.

غير أن هذه جميعها ينبغي أن نحدد ما هو مشترك وكلي، وننتج هدفا واحدا ورؤية واحدة تستقبل هذا ما يمكن أن يجتمع ما نسميه ب" الهوية الثقافية الوطنية والقومية" حيث تتداخل الهوية العامة بالثقافة الجزئية، لتميز ثقافة كلية للمجتمع الواحد، وهذه الكلية لا تنكر التنوع بل تحتويه وتنميه في جوفها.

وهكذا اجتمع في مفهوم الثقافة الواحدة ما هو ذاتي وما هو موضوعي، وما هو فردي خاص وما هو مجتمعي ووطني عام وتعتبر الهوية الثقافية الوطنية من أكثر الظواهر تطورا بين ضحايا الاستعمار السابقين في تاريخ العالم في أواخر القرن 20[58].

وإذا كانت الهوية تتميز بالموضوعية والثبات النسبي البطيء، فإن الثقافة تتميز بالذاتية والنسبية وتكون أكثر حركة وأسرع في التطور، وتمثل الإضافات المتحدة للهوية حيث تبدأ بالإبداعات الفردية والجزئية وحينما تتراكم في إطار الهوية الوطنية الأشمل، فإنها

[58] كوبر آدم، الثقافة والتفسير الأنثرولوجي، ترجمة صباح الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، د،ت، ص 19.

تشكل ذلك النسيج المتعدد للروح الكلية، وبهذا المعنى الرؤية العامة للأمة، حيث تحدد تصورها للمستقبل.

فالهوية الوطنية أو القومية عناصر ومكونات جوهرية، يتصف بعضها بالثبات الشعبي ويتميز بعضها بالقبائلية للتطور والتحول عبر الإضافات الجديدة للأفراد، ويمكن القول أن المكونات الجوهرية التي تنتمي إلى حقل الهوية هي الأكثر ثباتا مثل: الإقليم الجغرافي الواحد أرض الوطن، والأصل القومي الواحد، واللغة التي تعد تعبيرا عن لسان الأمة إلا أن اللغة يمكن أن تكون ثابتة أو متغيرة، أي أنها تشترك في الهوية وفي الثقافة لكونها قابلة للتعبير فهناك كثير من الشعوب غيرت لغتها أو طورتها من لهجة محلية إلى لغة مقروءة ومكتوبة، أما الأشكال الفكرية والروحية مثل: الدين والعادات والتقاليد والتاريخ المشترك والآداب والفنون، وكل منجزات الفكر فتنتمي إلى البعد الثقافي من الهوية، وهو العنصر الأكثر قابلية للتطور والإضافات المتحدة التي تغني وتثري المكونات الأساسية للهوية إذن الثقافة" ببساطة من أكثر هيئاتها عمومية طريقة الكلام حول الهويات الجمعية"[59]

[59] المرجع نفسه، ص 21

المحاضرة الثالثة عشر :

3- الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وإشكالية الهوية والانتماء:

تعد إشكالية الهوية والانتماء في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية من أهم الإشكاليات المطروحة في الساحة الأدبية وأكثرها تداولا من النقاد والباحثين فمنهم من يرى أنها أدب فرنسي وذلك على أساس أنها كتبت باللغة الفرنسية في حين يرى البعض الآخر انها جزائرية انطلاقا من روحها وواقعها الجزائري.

إن الذين ذهبوا أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هي أدب فرنسي بحت فقد اعتمدوا في هذا الرأي على اللغة التي كتبها فهم يعتبرون أن اللغة هي الخاصية الجوهرية التي تحددها هوية الأدب وانتمائه وهذا ما خلص إليه عبد الله الركيبي الذي اعتبر اللغة هي: أداة الأدب الأساسية وهي التي تحدد هويته وانتمائه الخاص للجنس أو وطن أو تاريخ أو جغرافيا أو غير ذلك"[60]، ووصل بهم الأمر إلى حد تهجينه والحط من شأنه وقيمته وذلك يرفضهم وإنكارهم على هؤلاء الروائيين اللجوء إلى لغة المستعمر لأنهم رأوا فيه: أدبا دخيلا نبت في ظروف غير شرعية[61] ،في حين رأى بعض أن هذا الأدب لا يعبر عن الأمة المغربية بصفة عامة ولا الجزائرية بصفة خاصة فهو حقا لا يتطرق لواقعها ولا لمتطلباتها حتى أنه لا يمكن الحزم بأنه مغربي حقا فهناك من يشك ويقول بفرنسية هذا الأدب كما ورد في وقل عبد المجيد جنوت في هذا الأدب بأنه " يعبر عن واقع بلغة أدب آخر جاء إليهم شاذ فلا هو مغربي صميم ولا هو فرنسي صميم"[62]

ومعنى هذا أنه إذا نظرنا للشكل فنجده يشير إلى ثقافة المستعمر ومتمثلة في اللغة أما المضمون فنجده يشير إلى مجتمعه وبيئته المحلية وسلط الضوء على ما يخصها ويتعلق بها، أما الذين رأوا فيه أدبا جزائريا أصيلا فقد أطلقوا من مرجع عدم إفشاءهم من أن اللغة

---

[60] عبد الله الركيبي، الفرانكفونية مشرقا ومغربا، دط، الكتاب العربي، ص 39.

[61] محمد الطهار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 494.

[62] عبد المجيد حنون، صورة الفرنسيين في الرواية المغربية، ص 98

هي سبب كاف ومقنع لتصنيف هذا الأدب وهذه فرنسا حيث تقول عايدة أديب باهية أن استعمال لغة مشتركة وهي الفرنسية لم يوجد وحدة وتماثلا بين الكتاب الجزائريين والفرنسيين ولا يمكن هذا الاختلاف في الأسس أو الخلفية التعليمية التي تعتبر متماثلة غالبا بالنسبة لكلا الفئتين بل يرجع العوامل كلا منهما فالجزائريون التي مرت المباشرة لأرضهم.. في حين، أن اللغة لأخرى متعلقة بالأرض فقط[63].

فالجزائري ابن هذه الأرض ولد وترعرع فيها والذي يحمل في قلبه كل مشاعر الوطنية والحب لهذا الوطن في حين أن الفرنسي لا يربطه شيء بهذه البلد سوى أنه موجود على أو منها ومنه فكان واجبا علينا أن نقصر عبارة الأدب المكتوب باللغة الفرنسية على ذلك الأدب الذي كتبته جزائريون لانهم هم فقط من يستطيعون التعبير عن هموم الأمة الجزائرية.

أما عن ذلك الأدب الذي تكتبه الفئة لا ترى فيكمن القول أنه أدب فرنسي كتب في الجزائر يعبر عن العظمة الاستعمارية ولذلك فمن الرغم وأحاسيسهم تختلف عن مشاعر وأحاسيس الجزائريين كما أثارت إليه عايدة أديب باهية في هولها: فشعور هؤلاء مثل شعور فرنسيين يقيمون في الجزائر وليس جزائريون يكتبون بالفرنسية"[64].

ولذلك كان ما كتبه هؤلاء الأدباء كان بغية تحقيق غايات فرنسية في الجزائر من أجل استغلال هذه الأخيرة كموضوع لذلك الهدف وهو ما يظهر جليا في كتابات بعض الأدباء من تلك الفئة ومن بينهم البير كامو على خلاف الكتاب الجزائريون الذين عاشوا مشاكل شعبهم وذاقوا من همومه ولذلك عبروا عنها بكل صدق وشفافية لذلك اختلفت نظراتهم فكل ينظر للقضية من وجهة نظره وهذا ما ذهب إله عبد الله الركيبي في قوله:" إن الفرق يتماثل في الرؤية فرؤية الكتاب الفرنسيين تختلف عن رؤية الكتاب الجزائريين ذوي اللسان الفرنسي"[65].

---

[63] عايدة أديب باهية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، تر: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 53

[64] عايدة أديب باهية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، 53

[65] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، دار الكتاب العرب، 2005، ص 211

فالأدب الجزائري هو ما كتب من طرف الأدباء الجزائريين بأي لغة كانت وهذا ما أثارت إليه عايدة أديب باهية في قولها " الأدب الجزائري هو كل عمل أدبي، مؤلف باللغة العربية أو اللغة الفرنسية من قبل أي من سكان الجزائر الأصليين"[66]

أما الآن فلم تعد هناك أية إشكالية في انتماء وهوية الأدب الجزائري فقد توقف ذلك الاستهجان والتشكيك في انتساب وأصبح اعتباره أدبا جزائريا من المسلمات لكونه أدبا فريدا من نوعه له خصائص متميزة كما أشير له من طرف الكاتبة عايدة أديب باهية في قولها:" أن الأدب الجزائري باللغة الفرنسية ضمن نطاق المثاقفة التي حتى وإن تمت بطرق عنيفة (الاحتلال) وفرضت الثقافة الجديدة على الثقافة المحلية فرضا فإنها شكلت أدبا فريدا من نوعه ميز الأدب الجزائري عن غيره من الآداب الأوروبية والعربية[67]، للغة المحلية وفرضت اللغة الفرنسية وكل هذا لم يمنع تشكل أدب ذا طبيعة خاصة ومتميزة لأنه حد عندما تجمع الروح الشرقية للجزائر لثقافة الفرنسية التي يستخدمها الكتاب الجزائريون تكون النتيجة ادبا أصيلا[68] وهذا الذي حدث بالفعل بعد التزاوج والاندماج.

وكان هذا الأدب لمدة طويلة سلاحا خطيرا، اعتماد عليه الكتاب الجزائريين في معركتهم ذد الاستعمار وإن كذبوا بلغته، فقد كانت كتاباتهم ثورة على شرائعه وقوانينه الحائزة حيث يقول مولود معمري في هذا الشأن إنني على ثقة أن المناضل هو الذي يطلق العار على الآخرين وفي الإمكان أن نطلق العبارات النارية بواسطة القلم هذا الحل الكاتب، قلما لما كان القلم سلاحا مرعبا تخشاه كل السياسات والحكومات الجائرة على مر العصور لأنه بإمكانه أن يفعل ما لم يفعله السلاح.

---

[66] عايدة أديب باهية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925-1967، 51

[67] فاطمة الزهراء حبيب، تر: الثقافة في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، معهد الترجمة جامعة وهران، 2015، ص 45.

[68] http://www.alsaker.com 14/02/2016

المحاضرة الرابعة عشر :

4-مظاهر الثقافة الجزائرية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

لم تخل الروايات الجزائرية التي كتبت باللغة الفرنسية من مظاهر الثقافة الجزائرية وتجليات الموروث الشعبي فيها فقد جرى غالبا تصوير الفرد الجزائري إلى جانبه بؤسه وفقره، فهو غالبا ضعيف البنية وسليط اللسان في أوقات اليأس، مقارنة بالأوروبي الذي وصف بالسمين لإفراطه في الأكل والأنيق بحكم الغنى، وعلى سبيل المثال لا لحصر فذكر شخصية لخضر في نجمة في مقابل شخصية أرنست.

لقد جرى التأكيد أن المسافات تقاس بالكيلومترات ولكن الهوة التي فصلت مجتمع المعمرين عن مجتمع الأهالي من الجزائريين تقاس بالسنوات الضوئية رغم انها تشاركا كالعيش على الأرض نفسها، ولكن تمسك كل منهما بطريقة عيشه وعاداته حالت دون الاختلاط والانصهار في كتلة واحدة ويظهر ذلك من خلال تسمك الجزائري بالأزياء الوطنيي، فلبس الرجال" الشاشية" ولبس النساء" الحايك" وأحيوا الأعياد الدينية العربية القبائلية والإسلامية كتأكيد على الثقافة الجزائرية البعيدة عن الثقافة الفرنسية التي لم تفهم الكثير من مظاهرها.

يكشف محمد ديب في ثلاثيته بعضا من الخصوصيات التي ميزت المجتمع الجزائري وجموع النسوة على وجه الخصوص، فكن يضعن على رؤوسهن مناديل من باب الحياء،[69] فلا يوجد من تكشف عن شعرها خشية الالتقاء برجل بحكم أن أشغال البيت تستدعي منهن التنقل من مكان إلى آخر، ويعوض بمناديل مزين في الأعياد أو الأفراح، ويلتفت مولود معمري نظر القارئ إلى عادات تميز النساء في المجتمع القبائلي ومنها الفوطة التي لا تفارقهن باللون الأحمر وحضور معدن الفضة دون غيره للتزيين بالإضافة إلى عادة وضع السياسة على الشفتين علامة على الدهشة أو التركيز أثناء الاستماع.

[69] الطالبة حبيب فاطمة الزهراء، ترجمة العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، مذكرة ماجستير 2015-2016، ص61.

وتحتل المرأة الجزائرية دورا مهما في الحفاظ على أصالتها وتراثها فالزي القبائلي كان حاضرا برمزية في روايات مولود فرعون إذ يقول" مولود فرعون" واصفا اللباس القبائلي بدقة:" كانت ترتدي قندورة بيضاء ذات ورود صغيرة وعلى خاصرتها فوطة من القطن يمسكها خيط أحمر بدلا من الحزام[70]" فاللباس القبائلي يعود إلى السنين مع امتداد الحضارة الأمازيغية ترتيب المرأة في الأيام العادية ويعتبر جزءا من اللباس الفولكلوري القبائلي، وقد استعمل " مولود فرعون" كلمة فوطة في النص الأصلي ليضفي لمسة محلية.

كما تحدث مولود معمري فغي روايته عن عادات تميز النساء في المجتمع القبائلي حيث نذكر" الفوطة" التي لا تفارق النسوة وتكون عادة حمراء بالإضافة إلى ترتيب النسوة بمعدن الفضة والتي تعتبر رمز زينة المرأة القبائلية"[71]

- مظاهر الثقافة الدينية:

يعد الدين الإسلامي محور من محاور الثقافة الجزائرية وهذا ما دفع بالمستعمر الفرنسي إلى محاولة محوه، غير أن الشعب الجزائري وها ما دفع بالمستعمر الفرنسي إلى محاولة محوه غير أن الشعب الجزائري لم يخضع لسياسة المستعمر وتمسك بدينه وحافظ على عقيدته الإسلامية وهذا ما أوضحه " مولود فرعون" في عدة محطات من روايته بالإضافة إلى استعماله بعض المفردات الدالة على الدين الإسلامي منها الصلاة، الجنة، الحرام، القدر، يوم الحساب، الرسول..الخ.

أما محمد ديب فيتوقف عند مظهر أداء الواجبات الدينية مثل أداء الصلاة وقراءة القرآن، ويتطرق إلى فلسفة الوجود وعلاقتها بالإيمان، كما يكشف عن بعض السلوكيات المنافية للدين مثل: شرب الخمر واللجوء إلى القبب والمشعوذين[72].

---

[70] مولود فرعون، نجل الفقير، ص100

[71] الطالبة حبيب فاطمة الزهراء، ترجمة العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية،ص 62.

[72] مالك حداد، سأهبك غزالة، تر: صالح القرميدي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 02.

أما مالك حداد فقد بدأ روايته الشهيرة je t'offrirai une gazelle سأهبك غزالة" على نحو التالي: ما أعظم الله فهو عظيم بقدري ما أنا وحيد..: ويلاحظ أن الروائي بدأ روايته بتعظيم الله وذكره اسما من أسماء الله الحسنى وهذا مظهر من مظاهر الدين الإسلامي.

ينقل مولود معمري فكر الجزائريين الذين درسوا في المعاهد الغربية وتأثروا بالفلسفة الإنكارية الوجودية فيتخذوا كل البعد عن تعاليم الدين الإسلامي، بل حاولوا أن يفتحوا بقية السكان بمعتقداتهم وأفكارهم مثالنا في ذلك شخصية أرزقي في رواية نوم العادل" ولكن رغم ذلك يتمسكون بالدين ويقوي لديهم الوازع الديني خاصة عند اللحظات الحاسمة فالعديد من الشخصيات تتلو الشهادة في اللحظات الحاسمة، مثل لحظة حيث تختم بها الشخصيات حياتها.

يقول كاتب ياسشين في روايته نجمة nedjma أستاذي العزيز، ان أسلم ورقة امتحاني.. فاليوم يوم المولد النبوي.. إن أعيادنا غير مسجلة في تقويمكم[73]... " نلاحظ أن الكاتب هنا تطرق إلى ذكر عيدا دينيا يحتفل به المسلمون ألا وهو ذكرى المولد النبوي الشريف، تحدث كاتب ياسين أيضا عن فريضة الحج في نفس الرواية، أما آسيا جبار فتطرقت إلى فريضة الصوم وأجواء رمضان في الجزائر في روايتها" القنابر الساذجة"[74]

تتجلى عناصر الثقافة الاجتماعية في حقول دلالية متفرقة باعتبار البيئة الجزائرية تزخر بالمظاهر الاجتماعية ومن المظاهر التي تجسد الثقافة الاجتماعية، نذكر في رواية" نجل الفقير" صورة تجمع شيوخ القرية في مقر" تاجماغت" والمقصود بهذه الكلمة في منطقة القبائل ساحة كبيرة تقع وسط القرية توجد فيها مقاعد عريقة يقصدها رجال وشيوخ القرية لمعالجة شؤون القرية، كما تطرح هناك وتناقش جميع المشاكل.

كما ذكر الكاتب مجموعة من المهن مثل الفلاحة والرعي بالغنم والعمل في رحى الزيتون وكذلك مهنة الحياكة الصوف أو غزل الصوف.

---

[73] كاتب ياسين نجمة، تر: محمد قويعة، دار سراس للنشر، تونس، 1948، ص 232.

[74] الطالبة حيبي فاطمة الزهراء، تر: العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ص 64.

كما ورد بعض المعتقدات التي يؤمن بها الجزائريون مثل المشعوذون والدجالون والجن إذ يقول مولود فرعون" لإخراج الجنون من الجسم يجب التضحية يسبب وتبخير بطن المريض بورقة غار وردي مكتوبة من الوجهين تكرر هذه العملية ثلاث مرات[75].

المسكن: يقول مولود فرعون" هناك بعض البناءات الواعدة التي شيدت حديثا بفضل النقود الوافدة من فرنسا، تعرض تلك الدور.. وقرميدها الأحمر وسط ذلك الخراب غير أننا نشعر أن ذلك ليس في محله بالنظر إلى هذا الإطار"[76].

ويقول أيضا:" والأمهات ربات البيوت اللواتي يتمتعن بذوق رضيع يحسن كل بيت أسس الجدران بارتفاع متر بشريط أخضر غير مستقيم يحصلن عليه من القطر المسحوق، وما فوق ذلك الخط إلى غاية السقف بصلصال أبيض لا يحصلن عليه إلا بشق الأنفس[77]، ما يلاحظ على نص مولود فرعون" الدقة وحسن انتقاء الكلمات إذ يصف هنا كيف يتم ترتيب المسكن من طرف ربات البيت.

كما تطرق" مالك حداد" في روايته إلى ذكر بعض أسماء الاماكن والمدن الجزائرية المعروفة كولاية" ورقلة" تمنراست" و" الجزائر العاصمة" بالإضافة إلى مدينة " تيمقاد" حيث يقول"(سأدخل مدينة تيمقاد من باب أدجانوس) وهناك نلاحظ أن مالك حداد أحصى في كتاباته بعض المدن الجزائرية ووصفها.

[75] مولود فرعون، نجل الفقير، ص 63

[76] المرجع نفسه، ص 17

[77] المرجع نفسه، ص 19.

خلاصة:

كانت مسألة الهوية ولا تزال إحدى الإشكالات الكبرى التي أرقت البشر، حيث أثارت جدلا كبيرا بين العدد من النقد والدارسين، واختلفت فيها الآراء حول الهوية الجزائرية فجرت ثورة التحرير ناهيك عن اللغة المعبرة عنها.

حملت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية صوت الشعب الجزائري فهي تعبر عن آمال وآلام أصحابها وطموحهم فهي تعتبر بمثابة مرآة عاكسة للمجتمع.

عالجت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية مواضيع اجتماعية بحتة منها الاستعمار الاضطهاد الفقر، البطالة، إضافة إلى الرواية في فترة التسعينات التي تحدثت عن الإرهاب والقتل والحشي، الاضطهاد الدمي، التي عاشها الشعب الجزائري في فترة العشرية السوداء وسميت روايتها برواية الأزمة.

تحدث كتاب الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية عن الحياة الاجتماعية للشعب الجزائري بالإضافة إلى تبيان مظاهر الثقافة الجزائرية

التطبيق الثاني :

مولود فرعون

ولد في 8 مارس 1913م في تيزي هيبل من عائلة فقيرة. التحق بالمدرسة الابتدائية في تيزي وزو بقرية تاوريرت موسى المجاورة، فكان يقطع مسافة طويلة إلى مدرسته في ظروف صعبة ولكن مثابرته واجتهاده وصراعه مع واقعه تحت ضغطالاستعمار الفرنسي جعله من النجباء، ثم اندفعللعمل بعد تخرجه، فاشتغل بالتعليم حيث عاد إلى قريته تيزي هيبل التي عين فيهامدرساً سنة 1935 ميلادي .

أعطى من علمه لأطفال قريته أعطى مثالا له في القرية التي احتضنته تلميذا قرب مسقط رأسه بأقل من ثلاثة كيلومترات، وهي قرية تاوريرت موسى التي التحق بها معلما سنة 1946 في المدرسة نفسها التي استقبلته تلميذاً، وعين بعد ذلك سنة 1952 ميلادي في إطار العمل الإداري التربوي بالأربعاء ناث ايراثن ثم التحق بالجزائر العاصمة مديراً لمدرسة (نادور) ،كما عين في 1960 ميلادية مفتشاً لمراكز اجتماعية كان قد أسسها أحد الفرنسيين 1955 ميلادية وهي الوظيفة الأخيرة التي اشتغل فيها قبل أن يسقط برصاص الغدر والحقد الاستعماري في 15 مارس 1962 ميلادي، حيث كان في مقر عمله،مهموماً بقضايا العمل وبواقع وطنه خاصة في المدن الكبرى في تلك الفترة الانتقالية أصبحت عصابة منظمة الجيش السري الفرنسية المعروفة ب(أويس) تمارس جرائم الاختطاف والقتل ليلا ونهاراً حيث اقتحمت

مجموعة منها على ""مولود فرعون" وبعض زملائه في مقر عملهم، فيسقط برصاص العصابة ويكون واحداً من ضحاياها الذين يعدون بالألاف فتفقد الجزائر بذلك مناضلاً بفكره وقلمه.

يعد فرعون أحد أكبر كتاب المغرب العربي لقد كانت «ابن الفقير» روايته الأولى ولا تزال، أول عمل أدبي يبدأ به كل تلميذ جزائري اطلاعه على الأدب الوطني. وكان فرعون يلفت انتباه مواطنيه كلما أصدر كتاباً جديداً وكان آنذاك معلماً قروياً، انتقل للعمل في العاصمة قبيل هلاكه المأساوي على يدي غلاة الاستعمار الحانقين. وقد حاز إبداعه شيئاً فشيئاً على شهرة واسعة، ليس في وطنه فحسب بل في فرنسا كذلك، وترك موت الكاتب أثراً فاجعاً في قلوب كل الناس من ذوي الإرادة الطيبة. ساهم مولود فرعون كثيراً في دعم القضية الوطنية، وإيقاظ الوعي للشعب الجزائري، الذي هب لمعركته الخيرة والحاسمة ضد الاستعمار.

من أقواله : أكتب بالفرنسية, وأتكلم بالفرنسية, لأقول للفرنسيين, أني لست فرنسياً

كان الكاتب الجزائري الراحل مولود فرعون يكتب بالفرنسية كي يقول للفرنسيين بأنه ليس فرنسيا،

كتب "ابن الفقير" عن "الدروب الوعرة" و"الأرض والدم" في سرديات تنبثق من أعماق الوطن الجزائري القابع تحت الاحتلال، ولم ينس فضح "ظلام الاستعمار" ليقول للفرنسيين: لا، بلغتهم.

وبمناسبة مرور نصف قرن على اغتيال الكاتب الجزائري الفرنكفوني (1913-1962) على يد "منظمة الجيش السرّي" الفرنسية (OAS) أصدرت دار نشر "أكت سود" الباريسية، بالتعاون مع دار "سولان" سيرة مهمة عن حياته وضعها الصحفي والكاتب الفرنسي جوزي لانزيني.

وأهمية هذه السيرة تكمن أولا في كونها المحاولة الأولى لسرد قصة حياة فرعون الغنية بالأحداث والإنجازات.

ولأن المدرسة لم تكن مصدر ثقافته الوحيد، يتوقف لانزيني مطولا عند العادات والتقاليد الأمازيغية التي تشرّبها فرعون منذ نعومة أظفاره، وعند الحركات الثورية الأمازيغية ضد المستعمر الفرنسي التي تركت قصصها أثرا بالغا داخله، وعلى رأسها ثورة الشيخ المقراني عام 1871، بدون إهمال دور المحيط النسائي في تعليمه الرقة والمقاربة السلمية للآخر من خلال قصص كانت تسردها عمّاته وخالاته له ويتفوّقالتزام

وإلى جانب جهده التربوي اللافت، يكشف لانزيني نشاط فرعون النقابي الذي حاول من خلاله مواجهة سياسة التمييز العنصري التي اتبعها المستعمِر الفرنسي في جميع المجالات، وأدّت إلى إفقار الجزائريين وتجويعهم وإذلالهم ومصادرة أراضيهم، مما دفع

بالكثير منهم إلى مغادرة البلاد للعمل في المنفى بظروف صعبة، كما فعل والد فرعون طوال حياته.

أما نشاط فرعون الكتابي، فيتناوله لانزيني بشكل مسهب، داخل السيرة وفي ملحق خاص في نهايتها، مبينا قيمته الأدبية الكبيرة ومضمون كتبه المثير الذي يعكس فكرا سلميا نبيلا ونفاذ بصيرة بالنسبة إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية التي عايشها، وبالتالي التزاما بقضايا أمته بعيدا عن أي تطرّف.

أعمال مولود فرعون :

ترك مولود فرعون عدة مؤلفات أدبية بالإضافة إلى الكثير من المقالات. أيام قبائلية : ويتكلم فيه عن عادات وتقاليد المنطقة طبع سنة 1954م. أشعار سي محند طبع سنة 1960م. ابن الفقير : كتبها في شهر أفريل سنة 1940م الذكرى طبع سنة 1972م. الدروب الوعرة سنة 1957م. الأرض و الدم طبع سنة 1953م. مدينة الورود طبع سنة 2007م. رسائل إلى الأصدقاء طبع سنة 1969م وكلها تتكلم عن المعاناة الجزائرية تحت ظلام الاستعمار والمحاولات العديدة لطمس هويته من تجهيل ونشر للمسيحية مقالات عديدة وكثيرة نشرت في عدة طبعات فرنسية وجزائرية.

تعتبر رواية"ابن الفقير"أول رواية كتبها مولود فرعون .. وهي من أهم الأعمال التي ما يزال اهتمام النقاد بها متواصلا فهو يشرح فيهاكيف يتكون« الطبع الحقيقي» للرجل القبائلي، حيث يولد الطفل في هذه المنطقة، من أجل المعركة في سبيل الحياة.

وتشكل فلسفة وحكمة الحياة وعاداتها ومعتقداتها وشعائرها القديمة ، ذلك العالم الخاص والأصيل الذي تمثله قرية تيزي، حيث شب ابن الفقير« فورلو»، وهي في الوقت ذاته ذلك العالم النموذجي لقرية قبائلية نموذجية. وهذا العالم لا يزال في الرواية يحيا أساساً وفق سنن موروثة من الماضي البعيد، حيث تسود أخلاق وأنماط حياة الأجداد، وحيث لا يزال كل واحد يؤمن بالقدر. غير أن الشكل الثاني من الصراع هو صراع من أجل إجادة لغة غريبة وثقافة غريبة، والدراسة في ثانوية فرنسية حيث يشعر دائماً بنفسه غريباً، ويشعر بالخوف من الطرد بسبب إخفاق عارض ويصمم« فورلو» على لقاء هذا العالم الذي يجهله، وهذه الحياة الغريبة عنه:« وحدي، وحدي في هذه المعركة الرهيبة التي لا ترحم .

وفي الأخير يمكن اعتبار رواية ابن الفقير سيرة ذاتية، تصف طفولة الكاتب ومراهقته، كما تغطي الرواية السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، لتصل نهاية العشرينات

ففي روايته الأولى "ابن الفقير" (1950) –التي تشكل نوعا من السيرة الذاتية– لم يسع إلى التحدث عن نفسه بقدر ما سعى إلى تصوير الشعب الأمازيغي الذي انتمى إليه، بعيدا عن المقولات المتداولة حوله.

وفي رواية "الأرض والدم" (1954) قارب موضوع المنفى بصعوباته ونتائجه على شخصية المنفي، كما تناول موضوعي الهوية والشرف. وفي كتاب "أيام قبائلية"

(1954) صوّر بأمانة مؤثرة وطرافة مشاهد من الحياة اليومية في القرى الأمازيغية. وفي رواية "الدروب الوعرة" (1957) كشف –من خلال قصة حب– صدام ثقافتين: الثقافة التقليدية للقرية الجزائرية وثقافة المهاجر، واستعان بشخصية نسائية فرنسية لنقد سلطة الاستعمار.

وفي البحث الذي يحمل عنوان "أشعار سي محند" (1960) عمد فرعون إلى ترجمة " عدد كبير من قصائد الشاعر الأمازيغي سي محند، وإلى استخلاص المراحل " الرئيسية لحياته، ومن خلال ذلك إلى تقديم شهادة إضافية على مقاومة الشعب الأمازيغي للاستعمار الفرنسي بواسطة الشعر التقليدي.

وفي ديوان "رسائل إلى الأصدقاء" (نشرعام1967) نقرأ جزءا مهما من مراسلاته مع أساتذة وأدباء وناشرين، مثل إيمانويل روبليس وألبير كامو. وبينما يتألف كتاب "الذكرى" (نشر عام 1972) من نصوص متفرقة قارب فرعون فيها الأدب الجزائري أو موضوع الاستقلال الحتمي لوطنه، رصد رواية "مدينة الورود" (نشر عام2007) التي لم يتمكن من إنجازها إلى معركة الجزائر العاصمة وجعل منها استعارة لاستحالة التعايش بين الجزائريين والفرنسيين في الجزائر.

أما كتاب "يوميات" (1955–1962) فيشكل شهادة قيمة على حرب الجزائر لوصف فرعون فيه أحداث هذه الحرب الصغيرة والكبيرة، كما يشكل مرجعا مهما يسمح لنا

بمتابعة تطور موقفه من هذه الحرب التي ستحصد مئات آلاف القتلى قبل أن تجعل منه ضحيتها الأخيرة.

وحول استخدام فرعون الفرنسية لغة لكتبه، يقول لانزيني "فرعون ليس من أولئك الذين يعتقدون بأن اللغة الفرنسية هي حتما لغة الاستعباد والاستعمار الثقافي، بل ما سمح له بفهم الآخر وتفسير نفسه وقول اشمئزازه وقرفه لأكبر عدد ممكن، وبالتالي ببلوغ أرضية الآخر بواسطة هذا السلاح المشترك الذي وصفه كاتب ياسين (بجزية حرب)."

ولأن فرعون استوحى معظم كتبه من معيشه، اعتمد لانزيني عليها بشكلٍ كبير لكتابة سيرته، كما يتجلى ذلك في الاستشهادات الغزيرة المقتطفة من هذه الكتب والتي تمنح نصه بعدا أنطولوجيا أكيدا. وفي حال أضفنا الأسلوب الجميل والشيّق الذي صقله لكتابة هذه السيرة ومعرفته العميقة بتاريخ الجزائر التي تظهر في استطراداته التي لا تحصى حول هذا الموضوع، لتجلت لنا كل قيمة عمله.

رواية ابن الفقير :

يُعدّ مولود فرعون (1913 – 1962)، أحد مؤسّسي الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، إلى جانب محمد ديب ومولود معمري وكاتب ياسين .بل إن الناقد الفرنسي المختصّ في الأدب الجزائري، جان ديجو (1921 – 1993)، يرى في كتابه "الأدب الجزائري المعاصر" أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وُلد، في واقع الأمر، مع صدور رواية "ابن الفقير" لـ فرعون مطلع الخمسينيات.

الرواية، التي تُعتَبر باكورة كتبه وأبرزها، تستعرض في ما يشبه السيرة الذاتية، مظاهر البؤس التي عاشها بطلُها "فورولو"، وتنقل في ضوء ذلك، الحياة اليومية في مسقط رأسه، في منطقة القبائل، خلال الفترة الاستعمارية.

صدرت الرواية لأوّل مرّة عن "دار سوي" في باريس عام 1954. وفيها حاول فرعون، كما يقول صديقه الكاتب الفرنسي إيمانويل روبليس (1914 – 1995)، "أن يُدلي بشهادته حول الشعب الذي ينتسب إليه، ويقول بأنهم أناس كسائر البشر."

لعل النجاح الذي حقّقه العمل، الذي تُرجم إلى عددٍ كبير من اللغات من بينها العربية، كان بمثابة حافز له لتأليف مجموعة من الأعمال الأخرى، ذات الصلة

بالموضوع المتناوَل؛ خصوصاً: "الأرض والدم" و"الدروب الصاعدة". كما أن مقاطع من "ابن الفقير" أُدرجت، بعد الاستقلال، ضمن المناهج المدرسية الجزائرية، عبر جميع أطوار الدراسة، وهو ما لم يتحقّق للكثير من الكتّاب الجزائريين المعاصرين.

تتميّز كتابات فرعون، بالمزج بين التحقيق الميداني والقصة التوثيقية. كان يعتمد فيها على المراقبة العينية والمعرفة الوثائقية المقرّبة لمنطقة قضى فيها طفولته وجزءاً كبيراً من شبابه. ولعلّه لونٌ من الكتابة اقتضته مآسي الحرب وبؤس حياة السكّان وفظاعة زمن الاستعمار.

يقول: "لقد كتبتُ "ابن الفقير" أثناء سنوات الحرب المظلمة على ضوء مصباح تقليدي. في هذه الرواية، يمكن القول إنني وضعت أفضل ما عندي". وعن سؤال طرحه الكاتب والصحافي الفرنسي موريس مونوايه (1920 – 2016)، عن اعتبار الرواية سيرة ذاتية، يجيب: "نعم، أنا متمسّك، وبشكل كبير، بهذا الكتاب؛ أولاً، لكوني لم أكن آكل إلا عندما كنت أحسّ بالجوع. زيادة على ذلك، جعلتني هذه الرواية أنتبه إلى إمكاناتي. فالنجاح الكبير الذي حقّقته شجّعني على المضي قُدماً في كتابة روايات أخرى."

عاش مونوايه في الجزائر خلال الفترة بين 1948 و1956. وفي الخمسينيات، شغل منصب رئيس تحرير في صحيفة "الجُهد الجزائري"، وقد جمعته صداقة بفرعون

وتبادلا العديد من الرسائل التي جمعها الباحث إقبال مهني في كتاب بعنوان: "مولود فرعون، موريس مونوابيه: قصّة صداقة" (دار الأمل، 2009).

يصف أوّل لقاء له مع الكاتب الجزائري قبل أن يجري حواراً معه: "كلّمني عنه إيمانويل روبليس. بعد نصف ساعة، دخل إلى مكتبي، يداه كانتا مرتبكتين، كان يحمل مظلّة ومحفظة جلدية. تخلّص من هذه الأشياء قبل أن يصافحني بمحبّة، بدا لي متوجّساً، يكاد أن يكون خجولاً، ولكن ما إن تتوافر أجواء الثقة حتى يتفاعل بنشاط، ويفتح قلبه. إنه الإنسان الأكثر روعة من بين الذين عرفتهم. عندما كان يتكلّم، كنت ألاحظه خفية، من خلف زجاج نظّارته المثيرة للانتباه. كانت عيناه تشعّان بريقاً، حيث يلوح من خلالهما، بصيص قادم من عمق حياة داخلية."

تلك الحياة ستنهيها "منظّمة الجيش السرّي" الإرهابية الفرنسية أياماً قليلة قبل التوقيع على "اتفاقيات إيفيان"، التي تمخّض عنها إعلان وقف إطلاق النار وتنظيم استفتاء تقرير المصير. يعترف مونوابيه بأنه، عندما بلغه نبأ اغتيال فرعون، بكى بحرقة، لأنه فقد شخصاً عزيزاً عليه جمعت بينهما صداقة ومحبّة ورسائل كثيرة، وفق قوله.

كان صاحب "الدروب الصاعدة" يعرف أنه مهدّد في أية لحظة بالموت، وكان يتوقّع ذلك، ويواجهه بشجاعة: "أعرف أنني، ربما، سأموت اليوم... قد أُعدم بالرصاص غداً، ولكنني أعلم أنني أنتمي إلى شعب عظيم يملك عزّة النفس، استطاع أن يزعزع

قرناً من السبات الذي أغرقه في ظلام دامس، وأن لا شيء يمكنه، منذ الآن، إعادته إلى سابق عهده."

بعد أيام من اغتياله، كتب أحد أبنائه رسالةً إلى روبليس، الذي أسّس بعد عودته إلى فرنسا دار نشر تُعنى بالأدب الفرنكفوني المغاربي، أصدرت معظم أعمال فرعون، ومن بينها يومياته التي ضمّت مجموعة من رسائله، جاء فيها: "كتبتم، يوم الثلاثاء، رسالة إلى والدي، سوف لن يقرأها. إنه شيء فظيع."

في هذه الرسالة، يروي الابن تفاصيل الليلة الأخيرة مع والده: "لقد سهرنا طويلاً معه يوم الأربعاء، وذلك لأوّل مرة منذ وجودنا في فيلا "لنغ". في البداية سهرنا في المطبخ، ثم انتقلنا إلى الصالون، وتذكّرنا كل المدارس التي درّس فيها، وشاهدنا بعد ذلك برنامجاً في التلفزيون يتحدّث عن روايتك، وقد سرّه ذلك كثيراً، وأنا أعرف العلاقة التي تربطكما. بعدها، تحدّثنا عنك، ثم ذهب لينام. كنت في الفراش حين سمعته يقول لأمّي: "اتركي الأطفال ينامون". كانت تريد إيقاظنا لنذهب إلى المدرسة. "كل صباح تُخرجين ثلاثة رجال، هل تعتقدين حقّاً، أنهم سيعيدونهم إليك سالمين". بصقت أمّي على النار، تحاول طرد الشؤم. وكما ترون، لم ينفع ذلك. خرج والدي ولم "يعيدوه" إلينا... رأيته في غرفة الموتى: اثنتا عشرة رصاصة لم تُصب وجهه أيّ منها. أبي كان يبدو جميلاً، لكنه كان جامداً تماماً، ولم يكن يريد النظر إلى أحد. كان هناك

نحو خمسين، بل مئة مثله، ممدّدين على طاولات ومقاعد على الأرض، في كل مكان. أمّا هو، فقد أرقدوه على طاولة في الوسط."

تحليل رواية ابن الفقير:

تعد رواية ابن الفقير لمؤلفها الجزائري مولود فرعون من الروايات التي تناولت إحدى الظواهر الاجتماعية، وفقًا لما ورد عن الدكتور بوزيد مولود في قراءته التحليلية لها، وقد لاقت هذه الرواية اهتمامًا واضحًا من النقاد والدارسين ومن القراء أيضًا.

حاول الكاتب في روايته هذه الإشارة إلى صراعات الإنسان القبائلي في الحياة، متمثلةً بالصراع النفسي، والصراع الاجتماعي، إلى جانب الصراع الثقافي بحكم العادات والتقاليد القبائلية. ولتوضيح الفكرة التي يريد الكاتب إيصالها تم تفكيك الرواية إلى عناصرها الأساسية وتحليلها على النحو الآتي:

العنوان

يعدّ العنوان من العناصر الدلالية المهمة في الرواية، وقد جاء عنوان هذه الرواية "ابن الفقير" كاشفًا عن المحتوى العام للنص أو الإطار العام له، وفي الوقت ذاته يعدّ محمّلًا بالدلالات والرموز، فيثير التساؤلات في نفس القارئ حول طبيعة الحياة التي يعيشها ابن الفقير وتفاصيلها ومآسيها.

المكان:

تدور أحداث رواية "ابن الفقير" في قرية "تيزي هيبل" الجزائرية، وقد وصف الكاتب سكان هذه القرية وأحياءها والملامح العامة لها، وبصورة عامة تقسم الأماكن الفرعية الوارد ذكرها إلى أماكن مفتوحة (مثل القرية والأحياء فيها) وأخرى مغلقة (مثل المنزل والمدرسة).

الشخصيات الرئيسية:

تدور أحداث رواية ابن الفقير بين عدد من الشخصيات الرئيسية، وهي:

فورلو: يمثل شخصية البطل ومحور الرواية، وحلقة الوصل بين الشخصيات وفي جميع الأحداث، وهو نموذج لأبناء الفقراء؛ فقد عاش طفولة بائسة في أسرة فقيرة، وبالرغم من ذلك كان محبوبًا من عائلته لا يُرفَض له طلب.

رمضان: هو والد فورلو فلاح خشن الشخصية، يمثل رمزًا من رموز الكفاح البائس في سبيل الأسرة والبقاء، كل ما يهمه تأمين قوت عائلته.

فاطمة: هي أم فورلو وزوجة رمضان، بقيت صامدة في وجه الفقر والمعاناة، وقد كانت تُعين زوجها في عمله وتعتني بأولادها.

لونيس: هو عم فورلو، يمثل رمزًا للشخص الطيب والمحبّ، فقد كان يعتني بفورلو ويسهر على تربيته لمواجهة قسوة الحياة.

الشخصيات الثانوية

تدور أحداث رواية ابن الفقير بين عدد من الشخصيات الثانوية، وهي:

حليمة: هي زوجة لونيس عم فورلو، تتصف بالأنانية وحب الذات، بالإضافة إلى متهان السرقة، وقد كانت على عداوة مع فاطمة، كما كانت تكره فورلو لأنها لم ترزق بصبي.

الجدة تسعديت: تجسد شخصية المرأة الحكيمة والرزينة، تهتم بشؤون المنزل وتدبر أمور العائلة، وقد كان الجميع يحبها ويستشيرها في مختلف الأمور.

خالة فورلو: تمثل حالة المعاناة والانهيار العصبي، إذ تُصاب بالجنون بعد موت أختها، وقد كان فورلو يحبها كثيرًا.

نانا: هي خالة فورلو الصغيرة، تمثل رمزًا للمرأة الهادئة والمحبوبة، وقد عانت من المرض أثناء فترة حملها، وتوفيت إثر ذلك.

الأحداث الرئيسية

يحكي الكاتب في هذه الرواية قصة الشاب ابن الفقير "فورولو" الذي كان يعيش حياة صعبة، يحاول فيها أن يحافظ على عاداته وأخلاقه وقيمه التي ورثها عن آبائه وأجداده، وفي الوقت نفسه كان يحاول أن يتأقلم مع المحيط الذي يعيش فيه ويتعلم اللغة الفرنسية، ويتمكن من إكمال دراسته الثانوية في مدرسة فرنسية، لكنه كان دائم الشعور بالخوف من الفشل والإحباط.

العقدة

تبدأ معاناة فورلو بعد الانتهاء من المدرسة الابتدائية، فالمعهد كان بعيدًا عن بيته ولا يوجد مكان يبيت فيه، كما تتدهور أوضاع العائلة المادية فيقرر فورلو السفر إلى فرنسا من أجل العمل، وفي منعطف آخر توفيت خالته الصغرى وهي تلد طفلتها، أما خالته الكبرى فتُصاب بمرض عقلي.

الحل

يعود فورلو من فرنسا بعد عام ونصف، وتصله رسالة من مدير معهد "تيزي" بالموافقة على المنحة، فيغادر المنزل تاركًا عائلته في حزن كبير، ويقضي سنوات الدراسة مع صديقه في نفس الغرفة.

السمات الفنية في رواية نجل الفقير:

بعد قراءة رواية ابن الفقير يلاحظ أنها تتصف بعدد من الخصائص والسمات الفنية، وفقًا لما ورد عن الدكتور بوزيد مولود في قراءته التحليلية لهذه الرواية، ومنها على سبيل الذكر لا الحصر ما يأتي:

_ وصف الأماكن الوارد ذكرها في الرواية بدقة متناهية.

_ تأسيس الفضاء السردي على ركائز موضوعية.

_ استخدام تقنيات سردية زمنية متعددة.

تعد رواية نجل الفقير من اشهر روايات مولود فرعون بل وكانت من أهم الأعمال في الجزائر، كانت تتضمن الكثير من القيم الإنسانية والعديد من الأفكار العظيمة.

كانت هذه الرواية تكتب عن الاحتلال الفرنسي وكم التعاسة التي عاشت فيها بلاده فترة الاحتلال عليها، وكانت تحكي عن معركة الجزائر الشهيرة التي قامت عام 1957.

كان محتوى رواية نجل الفقير عن الفقراء الذين يتواجدون في بلاده، ومعناة الطفل منذ ولادته وحتى يكبر، فتكون حياته عبارة عن معركة إما أن يقاوم ليحي بكرامة ويعيش ويرفض السيطرة عليه بأي شكل من الأشكال، وإما أن يستسلم لأي احتلال ويعيش ويرضى بالذل الأبدي والإهانة مدى الحياة.

أحداث الرواية تدور حول شاب فقير يدعى (فورلو) كان يعيش حياة فقيرة وصعبة، حيث يحاول التأقلم مع الاحتلال الفرنسي الذي يعيش فيه، ومع ذلك يتم الاحتفاظ بالقيم والأخلاق والعادات التي نشأ عليها وورثها من أجداده، يحاول هذا الشاب تعلم لغات وثقافات أخرى وتعلم اللغة العربية واللغة الفرنسية حتى يستطيع التكملة في المدرسة الفرنسية.

فورلو كان يعاني من الخوف الدائم من الفشل والإحباط، وكان دائما يردد: "وحدي، وحدي في هذه المعركة الرهيبة التي لا ترحم."

كان فورلو ومولود فرعون قريبين ومتشابهين في الرواية حيث فورلو ولد ونشأ في نفس مدينة مولود فرعون وعاش نفس ظروفه فكبر الكاتب والشخصية الروائية معاً في نفس الظروف وواجهوا نفس الصعوبات.

كان سريعا هذا الشاب ما يتخلص من أي عقد لديه وأي شيء يأخذه إلى السقوط، فكان يتحدى الصعاب ويتحدى الحياة ويقاوم حتى وصل إلى ما كان يريده.

توفى مولود فرعون على يد الاحتلال عام 1962، حيث نشرت هذه الرواية بعد وفاته ولاقت استحسان كبير وشهرة أكبر.

بعد نشر وانتشار الرواية بشكل كبير وسريع وإعجاب الكثير بها والاقتضاء بها، صنف النقاد هذه الرواية على أنها اهم عمل جزائري في هذا العصر.

حيث تم التهافت على هذه الرواية من قبل دور النشر وتمت ترجمة هذه الرواية إلى 25 لغة عالمية، وذلك لما تحمله هذه الرواية من قيم وأخلاق وتحديات للحياة .

المحاضرة الرا بعة عشر :

مولود معمري 1917_ 1989:

–ولد الروائي مولود معمري في 28 ديسمبر 1917 بقرية تاوريرت ميمون بآث يني ولاية تيزي وزو،نشأ وسط أسرة ذات جاه وعلم مهدت له ظروفا مواتية لاحتضان العلم والأدب، حيث تلقى تعليمه الإبتدائي بمدرسة القرية، وهي المنطقة التي كانت ملهما قويا لمختلف الأعمال الأدبية التي أصدرها فيما بعد،وفي العام 1928 التحق بالمملكة المغربية وهو لم يتجاوز الحادي عشر من عمره، ودرس بمدينة الرباط في كنف عمه الذي كان من الشخصيات المقربة للملك المغربي محمد الخامس آنذاك·

–في العام 1932 عاد معمري إلى أرض الوطن، فالتحق بثانوية بوجو (ثانوية الأمير عبد القادر حاليا) بباب الواد بالعاصمة، ثم انتقل إلى ثانوية لويس الأكبر بباريس فيما بعد·

–وفي العام 1939 جُنِّد من طرف السلطات الإستعمارية، غير أنها سرعان ما أخلت سبيله سنة 1940 فكانت فرصة للإلتحاق بجامعة الحزائر بكلية الأداب·

–وفي نفس السنة، نشر بمجلة "أكدال" المغربية مجموعة هامة من المقالات المتعلقة بالمجتمعات الأمازيغية، والتي تناولها في بعد انتروبولوجي زاد من وتيرة ترقية اللغة والثقافة الأمازيغتين، كما شارك أيضا في الحملة العالمية لمناهضة الحرب العالمية الثانية·

-وفي العام 1942 أعيد تجنيده بعد الإنزال الأمريكي، فترشح غداة نهاية الحرب إلى مسابقة توظيف أساتذة الآداب، ليعود إلى الجزائرسنة 1947 .

-وخلال هذه المرحلة، كان مولود معمري مدرسا بالمدية، ثم ببن عكنون بالعاصمة، فكانت مرحلة هامة لوضع أولى اللبنات لروايته الأولى "الهضبة المنسية" التي صدرت العام 1952 وهو العمل الأدبي الذي ارتقى بالكاتب إلى مصف العظماء، وقد نالت إعجاب كبار الكتاب آنذاك، حيث تمنى الأديب (طه حسين) أن تكون كتبت بالعربية ليطلع عليها القراء العرب لما تحمله من قيم جمالية وفنية رائعة.

-وفي العام 1955 أصدر الكاتب عملا روائيا جديدا بعنوان "نوم العادل " فأخذت شهرته تكتسح الأصقاع وازداد الطلب على روايتيه لما تحملانه من بعد إنساني حضاري يرتبط ارتباطا وثيقا بالإرث الثقافي للقبائل.

-كان الروائي مناضلا ثقافيا أسس للسانيات الأمازيغية وأنجز عملا كبيرا في النحو الأمازيغي أسماه " تاجرومت " وهو ما نعني به القواعد.

-ومع تسارع الأحداث، تفطنت الإدارة الفرنسية لأمر الكاتب فقررت ملاحقته واستهدافه، وقد كان كاتبا فذا ينبذ الإستعمار ويتغنى بالسلم والحرية، فكان عليه أن يغادر الجزائر وهو ما كان فعلا حين اتجه إلى مدينة الرباط سنة1957 وكانت تلك محطة هامة لإنجاز دراسات تتناول اللسانيات الأمازيغية في سياق أكاديمي منسق زادته ثراءا احتكاك الكاتب بأمازيغ المغرب، وهو ما أسس لأولى المحاولات لتأسيس

قاموس أمازيغي موحد بين دول المغرب الكبير.

غداة الاستقلال عاد الروائي مجددا إلى الجزائر، وأصدر في العام 1965 رائعة "الأفيون والعصا"

-وخلال المرحلة الممتدة ما بين 1965 و 1972 أشرف على تدريس اللغة الأمازيغية بالجامعة في إطار خلية الإتنوبولوجيا التي كان يشرف عليها، غير أنه منع في العديد من المرات من إلقاء دروس خاصة بهذه اللغة، وكان يجبر على الحصول على ترخيص لإلقاء تلك الدروس، وامتد الأمر كذلك إلى غاية سنة 1973, حيث تقرر خلالها حذف وحدة الإتنولوجيا من المقرر على أساس تصنيفها ضمن الوحدات الموروثة عن الإستعمار.

-إن روايات معمري تختلف اختلافا جذريا عن الأعمال الأدبية التي كتبت بالفرنسية منذ بداية القرن العشرين، ولقد اتضح منذ البداية أنه مشروع روائي يوازي فكر الأدباء الذين انصهروا في سياسة الاندماج والمثاقفة من قبل، وتبين جليا أن رواياته لم تكن إلا دعوة صريحة إلى أدب وطني أصيل.

-في سنة 1965 جمع الكاتب ونشر مجموعة قصائد الشاعر "سي محند أومحند"، فساهم بذلك في وضع لبنة أخرى في سياق الحفاظ على التراث الشفوي للشاعر بعد تلك التي قام الكاتب مولود فرعون. وخلال الفترة الممتدة ما بين عامي 1969 و 1980 أشرف على رئاسة المركز الوطني للأبحاث الأنتروبولوجية والدراسات ما قبل

التاريخ والإتنولوجيا، حيث أصدر مجلة ليبيكا التي اتسمت بدراساتها ذات الطابع العلمي، كما نشر سنة 1973 مجموعة قصصية موسومة" موظف البنك" والتي تضمنت أيضا مقالات سبق وأن نشرها من قبل.

الـــربيـــع الأمـازيـــغـــــي:

-في سنة 1980 تلقى الكاتب دعوة إلى إلقاء محاضرة بجامعة تيزي وزو بعنوان"الأدب الشعبي القبائلي" غير أن السلطات الولائية قررت يوم 10 مارس 1980 إلغاء المحاضرة، مما ألهب الأجواء الطلابية وتسارعت الأحداث فولدت مواجهات مؤسفة يوم 20 أفريل 1980 وهي الأحداث التي أصبحت تسمى بـ "الربيع الأمازيغي "، وفي نفس العاملم تتوقف آلة الكاتب من تلفظ ما كانت تدونه من أعمال أدبية، حيث أقدم على تجربة نشر ما جادت قريحته من شعر، فكان ديوان "أشعار القبيلة "مولودا أدبيا مميزا في تلك السنة.

-وفي سنة 1982 يعود معمري إلى العمل الروائي فينشر روايته الرابعة الموسومة "العبور."

-وفي نفس السنة، أسس بباريس مركز الدراسات والأبحاث الأمازيغية، وكذا أنشأ مجلة " أوال " التي تعني الكلمة.

-وفي العام 1988 كرم مولود معمري بالدكتوراه الفخرية منحتها له جامعة السوربون نظير ما قدمه من أعمال أدبية إنسانية خالدة.

سـاعـة الـرحـيـل:

-كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشر ليلا وبضعة دقائق من ليلة 26 فيفري 1989، كان مولود معمري يهم بالخروج من مدينة عين الدفلى· كان الليل دامسا، ولا ضياء في الأفق··· انعطفت سيارة الكاتب في منعرج خطير··· تقابلها شاحنة متوقفة في الطريق، وأضوائها منطفئة.

-حينما همّ مولود معمري بتفادي الشاحنة المتوقفة، أدار المقود إلى اليسار··· ولسوء الحظ، تنبعث الأضواء الوهاجة من سيارة قادمة بأقصى سرعة من الجهة المعاكسة··· الكاتب يجد نفسه مجبرا على تفادي السيارة، يدير بسرعة مقود السيارة إلى أقصى اليسار··· فتحدث الفاجعة ··· تنحدر السيارة في منحدر، فتصدم بشجرة ثابتة· بعد 20 دقيقة من الإسعافات (حسب رواية الطبيب المناوب)، ينقل الكاتب في سيارة إسعاف إلى استعجالات مستشفى عين الدفلى (أقرب مستشفى)، كان مجهزا بالوسائل الطبية ولكن من غير طبيب جراح في ذلك الحين· كانت الدماء تتطاير من كل أنحاء جسم الكاتب، لقد فقد كميات كبيرة من الدم· وبعد حوالي ساعة من الزمن بعد دخوله مستشفى عن الدفلى، تصل الروح إلى بارئها، ويرحل الكاتب···

-كانت وثائق الهوية (جواز السفر ورخصة السياقة) تحملان اسم: محمد معمري، ولا أحد من الطاقم الطبي تعرف على الكاتب· لقد اتصل أعضاء الطاقم بالشرطة وطالبوا بالاتصال بعنوان عائلة المتوفي كما ورد في رخصة السياقة: شارع سفينجة –

بلدية الأبيار – الجزائر.

–وفي حدود الساعة الثامنة صباحا، وصل الدكتور عمار خريص (دكتور على صلة وطيدة بالثقافة) ورئيس مصلحة طب الأطفال، إلى المستشفى وتم إخطاره بوجود جثة سائق سيارة في مصلحة حفظ الجثث، ونقل أعضاء الطاقم له الحكاية عن آخرها...

وعندما تقدم الدكتور إلى الجثة تعرف بسرعة على الكاتب، إلتفت خلفه، ففاجأ زملاؤه بصوت قوي:

"إنه الكاتب مولود معمري"، ليصاب الحضور بذهول غريب...

كان الدكتور خريص في غاية التأثر والأسى، لقد اتصل بجميع أصدقائه، من العطاف (منطقته الأصلية)، عين الدفلى، الجزائر، تيزي وزو... (إلخ) إلى غاية الساعة التاسعة وعشر دقائق، استطاع أخيرا أن يتحدث مع ابنة الكاتب معمري عن طريق الهاتف...

لقد تلعثمت الكلمات قي لسانه، غير أنه بادر أخيرا وأنبأها بالفاجعة...

–وفي حدود الساعة الثانية زوالا من يوم 27 فيفري 1989، كانت جثة الفقيد قد وصلت أمام عتبة بيته بشارع سفينجة بالجزائر. وفي نهار الغد، ينقل النعش إلى موطنه الأصلي بقرية تاوريرت ميمون، ويدفن الفقيد في جو جنائزي رهيب.

آخـر تصريح لمولود معمري:

قبل يومين من رحيل الكاتب مولود معمري، أجرت مجلة "LE MATIN du Sahara" صباح الصحراء – (الصادرة بالمغرب) حوارا صريحا معه وكان الحوار مركزا عن إشكالية خصائص وعولمة الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية، وخلال الحوار كانت إجابات الكاتب تفاؤلية نوستالجية أحيانا نلمس فيها الكثير من القراءات، لقد كان إنسانيا في إجاباته ومجايلا لكتاب عصره من الشباب· وخلال الحوار، طرح عليه سؤال عن رأيه في الكتاب الشباب الذين بدأوا يغزون الساحة الأدبية برواياتهم، وهل يشعر بأن له مكان في الرواية الجديدة أم لا، كان جوابه صريحا متينا من غير أية عقدة، وليتأمل القارئ سعة صدر الكاتب وعدم إحساسه بأي غرور أو عقدة الشباب، بقدر ما هي قيمة إنسانية نتمنى ألا يفتقدها المثقف الجزائري في كل الأحوال:

"أؤكد بأنني لا أطمح إلى أية عامة في هذه الروايات الجديدة، بل أنا راض كل الرضا عن النوع الجديد من الكتابة الذي أصبح يتميز به أولئك الشباب كما أن لهم نظرة جديدة في التفكير تتوافق ووقتنا المعاصر، وعليه لا بد أن يتجسد ذلك في كتاباتهم·"

وفي سؤال عن عما إذا كان لا يزال في تواصل مع كتابة الرواية أو العمل المسرحي، أجاب معمري حرفيا:

"بالطبع، أشتغل حاليا على رواية وثالث عمل مسرحي، وأتمنى أن أعكف على الكتابة الإبداعية إلى آخر أيامي."

–وفي آخر الحوار، ذكر الصحافي حكاية مؤثرة وقعت أثناء الحوار، حيث طلب من مولود معمري أن يعطيه قلمه حتى يتمكن من كتابة عنوانه بالجزائر. وفعلا قدم معمري سيالته للصحافي المغربي، وشرع الأخير قي كتابة العنوان، وفجأة توقف القلم عن الكتابة، فاستفسره الصحافي:

"ولكن لا وجود للحبر في قلمك"؟. فأجابه الكاتب مازحا:

"أظنه مات..." وما إن بادر بالجواب حتى انفجر الصحافي ضاحكا، ثم ترجاه أن يمكث أياما إضافية في مدينة وجدة إلا أن جواب مولود معمري كان صارما:

"لا، لا أستطيع. لدي موعد هام ينتظرني" وكانت تلك آخر مرة يلتقي الصحافي بالكاتب،كان ذلك موعد مع الموت.. وكان موعد لا لقاء فيه من بعد...

أعمال مولود معمري :

اشتهر معمري بمؤلفاته المكتوبة باللغة الفرنسية، وكتب العديد من الروايات، منها روايته الأولى "الهضبة المنسية" أو "الربوة المنسية" الصادرة عام 1952، ولقيت اهتماما بالغا من طرف النقاد والأدباء.

وكتب عن تلك الرواية عميد الأدب العربي طه حسين في دراسة نقدية ضمن كتابه نقد وإصلاح، جاء فيها "كتاب الربوة المنسية دراسة اجتماعية عميقة دقيقة تصور أهل هذه الربوة في عزلتهم، وقد فرغوا لأنفسهم واعتمدوا عليها، فلم يكادوا يذكرون أحدا غيرهم من الناس، وهم يجهلون ما وراء الجبال التي تقوم دونهم، لا يعرفون إلا حين يضطرون إلى ذلك اضطرارا وما أقل ما يضطرون إليه، وهم لا يشعرون بالحكومة إلا حين تجبي منهم الضرائب على ما تثمر لهم الأرض وما يكسبون من المال."

وإلى جانب "الربوة المنسية"، كتب معمري "غفوة العادل" (1955) و"الأفيون والعصا" (1965)، "العبور" (1982)، وفي عام 1965 جمع ونشر مجموعة قصائد الشاعر القبائلي "سي محند أومحند"، وفي عام 1973 نشر مجموعة قصصية تحت عنوان "موظفة البنك."

أصدر معمري عام 1980 ديوان شعري بعنوان "أشعار القبيلة"، وفي عام 1982 أسس مجلة "أوال "(الكلمة) التي تعنى بالقضايا الثقافية الأمازيغية، وأنجز عملا غير مسبوق في النحو الأمازيغي أسماه "تاجرومت" أي القواعد.

وله مقالات أنثروبولوجيا منشورة تهتم بالمسألة الأمازيغية، وقد حوّلت بعض أعماله إلى أفلام خالدة في تاريخ السينما الجزائرية أشهرها فيلم "الهضبة المنسية" و" الأفيون والعصا" للمخرج الجزائري المعروف أحمد راشدي.

المحاضرة الخامسة عشر :
مولود معمري.. قصة المثقف و الاتجاه السياسي :

ارتبطت أحداث الربيع الامازيغي باسم مولود معمري لأن تلك الأحداث اندلعت مباشرة بعد منع معمري من إلقاء محاضرة في جامعة تيزي وزو، ومن يومها وسم الكاتب بكل لعنات السياسة وألصقت به تهم العمالة وخيانة الوطن في حين يؤكد كل من عاصر مولود معمري أنه رجل ثقافة وفكر مسكون بالإشكاليات الكبرى للثقافة الجزائرية بعيدا عن الصراع السياسي، مولود معمري ظلم كثيرا، حيث ألصقت به وبفكره الكثير من التهم، كما نسبت إليه الكثير من الأكاذيب والادعاءات من قبيل أنه كان من دعاة الفكر الانفصالي أو كان ضد اللغة العربية وغيرها من التهم التي لا تمت بصلة لفكر رجل قدم الكثير للجزائر وظل إلى آخر حياته نصيرا لمهمته الأولى كمثقف ورجل بحث جامعي.

في ليلة 25 فيفري 1989 كانت الجزائر تودع أحد كبار كتابها إلى غير رجعة في حادث مرور رتبته الأقدار بتوقيت مدهش كان ذاك هو مولود معمري الذي استخلص قبل ذلك بساعات فقط في حوار مع صحفي مغربي أن "قلمه قد مات"، جملة أطلقها معمر يمازح صحفيا سأله عن توقف حبر قلمه لكنها تحولت إلى نبؤه الكاتب بمصيره فانقلبت به سيارة في منعرج موقعة نهاية رحلة شاقة وحافلة وثرية من حياة معمري .

رحل الكاتب ليلتها بهدوء وفي صمت وتواضع كما عاش حتى دون أن يتعرف عليه من كان في المستشفى وشيعته الجزائر كما يليق برجل عظيم مثله، أكثر من 200 ألف شخص في غياب تام للحضور الرسمي، لم تكن جنازة، كانت مظاهرة حاشدة ما يزال سكان آث يني يذكرونها إلى اليوم .

يؤكد الشيخ مولاي صديق مرافق مولود معمري في تسجيل تراث الأهليل بصحراء تيميون "أن الرجل كان مثقفا حساسا وخجولا مهتما بإشكاليات الثقافة لا علاقة له بالسياسية أبدا، كان يعشق آلة الامزاد وصمت الصحراء وصبورا في اقتفاء أثار تراث الأهليل والإصغاء إلى صوت الأجداد". يقول الشيخ مولاي "عرفت الرجل هادئا متواضعا وملتزما بالتنقيب التاريخي والعلمي، كرس حياته كلها للحديث عن الثقافة والبحث في مشاكلها، رافقته خلال سبع سنوات في جمع وتصنيف تراث الأهليل ولم يحدث يوما أن تحدثنا في السياسة ..تعرفت على مولود معمري بفضل الباحث الفرنسي بيار روجيه الذي كان يشتغل رفقة مولود معمري، كباحث في التراث الموسيقي، تلقى مكالمة من سيدة بريطانية تطلب منه المساعدة في تسجيل الموسيقي البدوية في الصحراء الجزائرية. عندما قدمت هذه السيدة إلى الجزائر أعطتها وزارة الداخلية تصريحا بالتسجيل ووضعت تحت تصرفها دليلا سياحيا، في الطريق قام الدليل بإسماع بيار روجيه موسيقى قال أنه سجلها في "ڤوربي" بمنطقة شروين، فأعجب بيار روجيه بالموسيقى وقال يجب أن يستمع إليها الدا المولود ..عندما حمل بيار روجيه التسجيل إلى صاحب "الربوة المنسية" بقي مدهوشا فمن جهة هناك اللغة الامازيغية، ومن جهة أخرى الموسيقى ذات اللمسة الخاصة. وهناك الابتهالات الدينية فطلب من بيار روجيه العودة إلى شروين لتسجيل موسيقى الأهليل، لكن عند وصول الباحث الفرنسي رفض السكان أن يلبوا طلبه، لأنه كان أجنبيا ذا عيون زرق. ومن عادة الأمازيغي دائما أن يكون متحفظا تجاه من لا يعرفهم يقول الشيخ مولاي. فما كان من بيار روجيه الذي رفض العودة

إلى الدا المولود خالي الوفاض أن قصد رئيس الدائرة ليساعده، وعندما أخبره الباحث الفرنسي بأمره، قال له لماذا تذهب إلى شروين لتسجيل الأهليل والأهليل موجود هنا بتميمون، يقول الشيخ مولاي أن رئيس الدائرة أرسل في طلبه وطلب منه تحضير فرقة تؤدي الأهليل حتى يتمكن بيار روجيه من تسجيل الموسيقى، وهكذا تمت الأمور وعندما أخذ بيار روجيه التسجيل، وسمعه مولود معمري قال له يجب أن أقابل صاحب هذه الموسيقى ..يقول الشيخ مولاي.. ذات يوم من عام 1971 دق مولود معمري باب بيتي على الثامنة والنصف صباحا، ولم أكن قد عرفته من قبل، كنت فقط أسمع باسمه ككاتب وباحث كبير، يومها اكتشفت مولود معمري الإنسان ولم نفترق طيلة سبع سنوات قضاها معمري في تسجيل ودراسة موسيقى الأهليل، وله يعود الفضل في إخراج هذا التراث إلى العالمية. كان يزوروني تباعا في بيتي أو أذهب أنا إليه في العاصمة لترجمة ما يتم تسجيله، ولم نفترق إلى غاية وفاته رحمه الله.

معمري الإنسان كان يحب النكتة والنقاش المفتوح، كان إنسانا وديعا يتقن الإصغاء للآخر مهما كان الموضوع. عندما يستغرق في موضوع بحثه يكون إنسانا صارما، ولكن عندما ينتهي يمكن أن يتأقلم مع كل الشرائح العمرية وجميع الناس أيضا. الدا المولود –يقول الشيخ مولاي –لم يكن يهتم إطلاقا بالسياسة، فطيلة سبع سنوات التي عرفته فيها لم يحدث على الإطلاق أن تحدثنا في أمور السياسية كان كل همه ثقافيا بحتا. يواصل الشيخ مولا حديثه: "تعرضت للكثير من المضايقات بسبب صداقتي مع معمري، الكثيرون كانوا يعتبرونه

معارضا ويحشر أنفه في السياسة، لكن الحقيقة غير ذلك، معمري لم يهتم بالسياسة لا من بعيد ولا من قريب، كان يريد تطوير وإخراج التراث الثقافي الجزائري إلى الأضواء.

حقيقية يؤكدها كل من تحدثنا إليه من الذين عاصروا الرجل، أنه كان في قلب عصره ومشكلات بلاده والنقاشات التي كانت تعرفها الساحة أذاك حيث يؤكد الأستاذ الحبيب السياح أن المحيط الجامعي في نهاية السبعينات وبداية الثمانيات لم يكن بعيدا عما كان يطرحه معمري في كتباته خاصة بالنسبة للطلبة "مفرنسين بربريست" وحتى وسط الطلبة من "المعربين اليساريين" من كان يدافع عن أطروحات معمري" ردا على تطرف "العروبيين" تجاه الهوية واللغة وحتى العرْقية؛ لأن "المفرنسين البربريست" كانوا على نفس درجة "المعربين العروبيين" تطرفا تجاه الهوية واللغة والعرقية أيضا ."ويؤكد الأستاذ الحبيب السايح الذي عاصر معمري كجامعي أن معمري بالنسبة له "في تلك المرحلة (نهاية السبعينيات) تنازل عن صفة الأديب لصالح صفة المثقف صاحب القضية: قضية كان من الصعب تقاسم طروحاتها؛ لارتكازها على العامل الإنثروبولوجي . مع ما كان لهذا الاختصاص من دور مشبوه في مراكز البحث الإثنولوجية والأنتروبولوجية الاستعمارية.

ثم إن رنين هذا الاختصاص كان ولا يزال ذا وقع سلبي لاتخاذه ذريعة من ذرائع تقسيم الوجدان الجزائري على أساس العرق أو اللغة أو هما معا. وعلى بعد المسافة، الآن، يؤكد السياح" أقدّر أن تحول مولود معمري إلى "النضال" بواسطة البحث في علامات الجذور والهوية واللغوية لم يكن غير رَدة فعل صافية وصلبة . كما يقال . على الطروحات "العروبية"

التي كانت تجد لها مبتدأ ومنتهىً في "شعبوية" الحزب الواحد آنذاك والناشر لخطاب لغوي وثقافي أحادي أصاب في الصميم الخصوصية الجزائرية التي كانت تفرض مقاربات سياسية أخرى في مجال الثقافة واللغة ولم تكن مسألة خروج مولود معمري من الجزائر في خلال حرب التحرير ولا "صمته" حينها، ولا أدبه وأبحاثه محل نقاش كما كانت مواقفه السياسية تجاه "القضية البربرية". لذا، يمكن لي أن أقول إنه كان "مسيح" الربيع البربري. في 1980أذكر أني كنت طرحت على مولود معمري، في إحدى محاضراته، بمركز البحث الأنثروبولوجي التابع لجامعة وهران، في بداية الثمانينيات، مسألتين: الأولى: كون اللغة (اللهجة؟) الأمازيغية غير قادرة على التجريد لتستوعب الفلسفة والرياضيات مثلا. والثانية: كون خط التفناغ أو الخط اللاتيني لا يستجيبان لرسم اللغة (اللهجة؟) الأمازيغية في الجزائر؛ لأن صوتياتها تتجسد أكثر مع الخط العربي (وذلك ما كان ستبرهن عنه جريدة "ألجيري ريبيبليكان" إذ خصصت صفحتين بالأمازيغية بالخط العربي) فأجاب عن الأولى بأنها تتطلب وقتا وبأن التأسيس لقواعدها جار. وعن الثانية بأن الخط اللاتيني عالمي. ولا أجزم إن كان أعطى مثالا بتجربة "أتاتورك."

مسيح الربيع البربري كما يسميه الحبيب السايح اتخذ من البحث الأنثروبولوجي بديلا للغوغاء السياسية لتأصيل أطروحاته العلمية ولم يدخر أي جهد في سبيل ذلك.

المحاضرة السادسة عشر :

مولود معمري الكاتب الذي يحلم بالآفاق المغاربية :

يقول الدكتور أمين الزاوي أنه كان آخر كاتب جزائري تحدث اليه في ملتقى بالمغرب الأقصى، حيث يذكر أمين الزاوي أن مداخلة معمري كانت الأكثر إثارة للجدل نظرا لما جاء فيها من أفكار، لكن الزاوي يؤكد أنه لم يجد في معمري تلك الصفات والصور التي طالما تداولها الإعلام حوله، فلم يكن أبدا رجلا متعصبا بل بالعكس كان انسانا بسيطا متواضعا وخجولا، لا يكاد يرفع عينيه في وجه محدثه. ويؤكد الزاوي الذي كان مترجم الحوار الذي أجرته إذاعة مغربية مع الكاتب على هامش الملتقى أن معمري كان مهتما بالفضاء المغاربي، وكان قد تحدث إليه عن مشروع انشاء مجلة مغاربية "آفاق" كما كان يعد لدراسة أنثروبولوجيا عن منطقة بني سنونس .يؤكد الزاوي في شهادته أنه كان قد انتزع وعدا من الكاتب لاستضافته في حصته أقواس قبل أن يفاجأ لدى وصوله إلى بيته بوهران أن الكاتب رحل في حادث سيارة مؤلم.

معمري من روايته "الربوة المنسية" اقتبس أول عمل سينمائي بالأمازيغية التي لم تكن غير الجزائر في عزلتها. تلك الرواية التي أشاد بها طه حسين وتمنى لو أنها كتبت بالعربية حتى يكتشفها القراء العرب وكذا صاحبها روائيا استثنائيا.

وفي حوار نادر نقله الى العربية الأستاذ محمد عاطف بريكي ونشر في الصحافة في مناسبة من مناسبات إحياء ذكرى رحيل الكاتب معمري يؤكد على عكس ما يروج له الإعلام أن الكاتب يكن الكثير من الاحترام للغة العربية، ويعتبر أن عدم اتقانه لهذه اللغة يشكل له نقصا كبيرا "لقد حاولت كثيرا أن أتعلم اللغة العربية ولكني فشلت، وفشلي في تعلم لغة بلادي أثبت غبائي عن جدارة، وهذه مأساتي تكمن في داخلي وتسبب لي كثيرا من الآلام ولكن الأجيال المقبلة من الكتاب الجزائريين ستعوض كل ما حرمنا منه."..

وفي نفس الحوار يبدو الكاتب مؤمنا أن دور الكاتب هو ريادي في المجتمع وليس موظفا لدى السلطة، كما لا يجب أن ينزل رجل الثقافة الى الشارع، بل على العكس يجب أن يرتقي الشارع الى خطاب المثقف "أؤمن تماما بأن الكاتب يجب أن يرفع من مستوى الجمهور المثقف إليه ..وأنا دائما ضد هذه الفكرة ..وأحب أن أرتفع وأن يرتفع معي القراء ..أن نرتفع معا".. "الكاتب ليس موظفا في الدولة، لأنه إنسان متحرر من جميع القيود.. يتحرك ويصرخ، ويفرغ، وتحركه أحاسيسه وانفعالاته، ويعبر عن كل هذا بقلمه... أن الكاتب هو حقيقة الجمهور لأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يعبر عن مأساته .."كان هذا هو الدور الذي آمن به معمري إلى نهاية رسالته. ورغم ما كان يمثله معمري كرجل ثقافة وأهميته في الحقل المعرفي لكنه بقى رجلا متواضعا على قدر كبير من البساطة، حتى أنه أجاب من سأله متى ستكتب مذكراتك قائلا: "لست الإسكندر الأكبر حتى أكتب مذكراتي. أنا مناضل جزائري بسيط، أحمل السلاح والقلم في وجه العدو... في أي مكان، وأي زمان .."!العدو

الذي قصده معمري كان بصيغة أو بأخرى الجهل والتعصب والانغلاق الذي حاربه بكل ما أوتي من أدواة فكرية وعلمية، فمن الرواية إلى البحث الجامعي المتأصل قاد معمري مشوارا كبيرا وعميقا في التأسيس للسانيات الامازيغية، حيث كتبت" تاجرومت" التي تحمل اليوم اسمه" ثيمعمرث" حيث وضع وضبط قواعد اللغة وقد استغل الكاتب فرصة تواجده بالمغرب الأقصى بعد أن لاحقته السلطات الاستعمارية في الاحتكاك بأمازيغ المغرب، الأمر الذي جعله يحمل لواء إنجاز قاموس أمازيغي موحد بين دول المغرب الكبير..

التطبيق الثالث :

الربوة المنسية لمولود معمري:

الربوة المنسية؟ هذا التركيب الوصفي لا يقرأ عندنا قراءة نقدية، إلا في مجال العلاقة الموجودة بين الربوة ومولود معمري، أي العلاقة الوجدانية التي تلغي من وجودها عوامل النسيان، فكيف يستقيم هذا الفهم لهذه العلاقة، مع أن عنوان الرواية يقر بقيام النسيان حقيقة وجودية،مشاهدة ومشهودة؟. ذلك هو الإشكال الأول الذي يواجهنا، ونحن نقف عند العنوان لنتجاوزه إلى العمل الروائي. أما الإشكال الثاني فمرجعه إلى هذه الأسئلة. ما هي مساحة النسيان في الزمان والمكان؟ وهل هذه المساحة مساحة شعورية فردية فردانية؟ أم هل هي مساحة جماعية جمعانية لها ما يسوغها في واقع محدود؟ هل هي مساحة رسخت عن وعي وقصد من أجل تكريس واقع آخر ينبغي أن يكون قارا، أم هل هي مساحة تتأطر في سياق الانشغال باليومي الذي يفاجئ الإنسان بتراكماته الحياتية؟ حول هذين الإشكالين يمكن أن نقرأ التركيب الوصفي، (الربوة المنسية) أي جانبا من جوانب المجال الروائي عند مولود معمري. ويمكننا أيضا أن نقرأ هذا المجال من خلال إشكالات أخرى تقف في مسارنا التحليلي، وهي إشكالات تملك خصوصية الإلحاح الذي يؤرق الفكر. ونحن لا نقصد من وراء هذا الحديث الوقوف عند الإشكالين أو البحث في وعن الإشكالات الأخرى. فلذلك موضع

غير هذا الموضع، ولكننا واقفون عند الفقرة الأولى من الرواية، بل عند الجملة الأولى من الفقرة الأولى (الربيع عندنا لا يدوم). وتواجهنا في سياق هذه الجملة الصدمة هذه الأسئلة. أي ربيع هذا الذي لا يدوم؟ هل هو الربيع الفصل؟ يبدو ذلك من خلال الوصف السطحي الذي لا يبلغ العمق العميق من الأرض. غير أننا نعتقد أن الربيع في سياق الرواية كلا، لا يقف عند المعنى المعروف عند الناس، ولكنه الربيع الذي يضم في نسق فكري عقدي وجداني الربيع بمعنى الفصل، والربيع بمعنى الشباب، والربيع بمعنى الربوة المعشوشبة في ذاكرة مولود معمري، والمنسية في ذاكرة الآخرين. كيف تكون الربوة منسية في الذاكرة الجماعية؟ إشكال آخر أو سؤال إشكال نضمه إلى الأسئلة التي طرحناها سابقا لا لنجيب عنه وعنها ولكن لنثير قضايا لا أشباه قضايا. (القضايا في هذا المجال تتموقف في معانيها الفلسفية الفكرية الشعورية العقدية الوجدانية.وهي المعاني التي أكدها مولود معمري في الوهج التراثي أي في التاريخ الذي يتألق في الذاكرة سلوكا موزونا متزنا من زاوية نظر معينة أي من زاوية مجموع الحقائق التي تحتضنها(آيت يني) و(آيت يعقوب) و(آيت إسماعيل) و(تاجمعيت) و(تعساست) وغير هذا وذاك من المجموعات الزمانية والمكانية العقدية والوجدانية والتراثية التي نعرفها موشومة في ذاكرة (زْواوا). ما هو الخطاب الروائي الذي أراد مولود معمري ترسيخه أولا في الذاكرة الشعبية بالمفهوم الجبلي، وثانيا في الذاكرة الشعبية بالمفهوم المدني؟ إنه لا يمكن فهم هذا الخطاب بمعزل عن الجملة

الأولى من الفقرة الأولى من الرواية. في الفقرة الأولى نجد أصل الخطاب منتصبا بين ذهاب ضمير المتكلم ورجوعه (لقد تركت وأنا أذهب أَعزي تعساست عروس الليل ووجدت وأنا أعود تمعزوزت ابنة لثماس شابة مقبلة على الزواج) بين الذهاب والإياب تتحول الفتاة الصغيرة إلى فتاة شابة لا لتتمتع بشبابها ولكن لتصبح زوجة. والزواج هناك في الجبل وفي الربوة المنسية مواجهة للصقيع، بل هو الصقيع عينه، إن لم يكن زواجا وجدانيا، أوكان وجدانيا من جهة ومأساة من الجهة الأخرى. وفي جهة المأساة يغيب الدفء إذ يحاصر من كل ناحية بالصقيع الشتائي، والقيظ الصيفي. والحصار يشتد ويمتد ليحتد الإحساس بأن الناس في الربوة المنسية تنتقل بهم الحياة مباشرة من الشتاء إلى الصيف. وفي هذا الانتقال، بل في هذا النقل ما يؤكد الأزمة الوجودية التي تتفرع في جميع الاتجاهات التراثية والعقدية واللغوية والشعورية والاجتماعية. هل يمكن أن يكون هذا الحصار الوجودي هو النسيان ذاته أي النسيان الذي يضرب بأثقاله على الربوة؟ هذا سؤال قد يشكل عندنا صلب الأزمة التي تعيش فيها هذه الربوة. نقول(قد)لأننا لا نريد أن نجزم في الأمر انطلاقا من أن القراءة النقدية كشف وتوقع وحدوث لما لم يكن يتوقع في السياق النصي. وعلى هذا لا داعي إلى أن نفرض منهجا نقديا معينا نصدر عنه في هذه القراءة، بل إننا سنترك قراءتنا لحسنا النقدي الذي لا يجد ذاته إلا في الاستلهام النصاني. قلنا هذا سؤال، قد يشكل عندنا، صلب الأزمة التي تعيش فيها الربوة. فمتى تتحول إلى جبل شامخ يعصم

الإنسان من الحصار؟ بل متى تعود الربوة إلى سابق عهدها من القوة الجبلية، والقدرة على الحفاظ على الدفء الربيعي؟ نجد، من هنا، مستويين للدلالة، الدلالة على الجبل، أي رمز العصمة والتحصن والرسوخ في قرار مكين، والدلالة على الربيع، أي على السر الذي يحرك الحياة فيثيرها من خلف السدف. وعندما يجتمع الجبل والربيع، أي عندما تجتمع الرجولة بما فيها، وما حولها، وما معها من ماض وحاضر ومستقبل، والأنوثة بما عندها ولديها من قدرة على الولادة والتوالد، والزيادة والتزايد، أي على الإبداع الحياتي الذي يجد ذاته ووعيه في الماضي التراثي، والحاضر العملي، والمستقبل الغيبي الموجود في رحم التراث، إذ يقع هذا الاجتماع تتحقق النبوءة الولادة، أي تخرج الربوة من دهاليز النسيان لترتفع وترتفع في الحضرة، أي في محفل الغناء والأهازيج، والزغاريد وضرب الطبول، ونقر الدفوف، ومداعبة الأوتار. وفي هذه الحضرة يأتلق ضمير المتكلم توهجا، وتزدهي العروس تألقا، وتفرح بهذا الإئتلاق، وذلك الازدهاء، أصوات تنطلق من ضمير التاريخ مزهوة العاطفة، مشبوبة الفكر، لتشهد التواصل الممدود في الشرعية التاريخية بين الغائب والحاضر. وما الحاضر والغائب في البدء وفي النهاية إلا التجذر الواعي في الأرض، وما تنبت الأرض من قيم ومبادئ، وأحاجي وحكايات، فإذا أضيف هذا المعنى إلى المرأة السر، أي عروس الليل، وما يحمل الليل من أحلام وخيالات وغناء ورقص على طريقة الحضرة، بلغ التحدي البشري للصقيع أشده، وكان الدفء في مواجهة القيظ الصيفي الذي يعد في

هذه الحال، وقتا للقطاف، أي وقتا لاصفرار المحاصيل، أوقل لانتصاب(تعساست) في علوها وشموخها. وانتصابُها أي عودة الحياة إليها يكون في يوم لا ريب فيه. يقول أحد الأصوات (الوداع أقول لك الوداع حتى اليوم القادم الذي تلتقي فيه روحي بروحك وبروح أعزي وإدير وكو حقيقة من أجل صنع تعساست في عالم تغيب فيه المعاناة والعقبات.

التطبيق الرابع :

الكاتب الطاهر بن جلون

ولد الطاهر بن جلون في فاس بالمغرب في 1 ديسمبر 1944 و إنتقل إلى مدينة طنجة مع أسرته سنة 1955 حيث التحق بمدرسة فرنسية. اعتقل عام 1966، مع 94 طالب لتنظيمهم مظاهرات 1965 الطلابية. عمل مدرسا للفلسفة في الرباط حتى عام 1971، وغادرها إلى فرنسا بعد إعلان الحكومة المغربية عن عزمها على تعريب تعليم الفلسفة، وفي فرنسا حصل على شهادة عليا في علم النفس. كانت له مساهمات في مجلة "سوفل" مع عبد اللطيف اللعبي ومحمد خير الدين (1968–1970).

بدأت مسيرته في الكتابة بعد فترة قصيرة من وصوله إلى باريس حيث عمل كاتبا مستقلا لصحيفة لوموند وبدأ ينشرالشعر والرواية، فكتب شعرا ثم صدرت له العديد من الأعمال الأدبية منذ السبعينات، وتميزت أعماله بالطابع الفولكلوري. ينتمي إلى الجيل الثاني من الكتاب المغاربة الذين يكتبون باللغة الفرنسية. عبرت رواياته عن قضايا المرأة في المجتمع العربي الذكوري، ورصد أوضاع المهاجرين العرب والمسلمين في فرنسا، وفنّد التعقيدات الاجتماعية والجنسية في المجتمع المغربي. ترجمت أعماله الأدبية إلى العديد من اللغات.

الطاهر بن جلون الروائيّ المغربيّ الطاهر بن جلون من مواليد ديسمبر عام 1944 للميلاد، وُلد في مدينة فاس، وهو من كتاب الجيل الثاني في المغرب، ومع أنّه من مواليد مدينة فاس في المغرب، وانتمائه في النسب يعود للمغرب إلّا أنّه يوصف في المصادر أنّه كاتب فرنسي، وذلك يعود كونه يكتب أعماله الأدبية من الشعر والقصة والرواية باللغة الفرنسيّة، وقد حصل الطاهر بن جلون على جوائز أدبيّة عديدة من خلال الأعمال الأدبيّة التي ألفها خلال مسيرته الأدبيّة، وكانت أغلب أعماله التي أصدرها تتميز بطابع العجائب والفلوكلور، ومن الجوائز التي حصل عليها جائزة غونكور الفرنسيّة للأدب، وهذه الجائزة كانت بسبب روايته التي ألّفها وكان عنوانها ليلة القدر، والطاهر بن جلون من الشخصيات التي أثارت جدلًا كبيرًا بسبب الأعمال الأدبيّة التي أصدرها، وهذا ما جعل شهرته تزداد أكثر، وبالمقابل وُجّهت إليه أيضًا انتقادات كثيرة حول أعماله واتجاهاته وأفكاره التي يبثّها في أعماله الأدبية.

حياة الطاهر بن جلون الطاهر بن جلون هو من مواليد مدينة فاس، إلّا أنّه انتقل مع عائلته إلى طنجة في عام 1955 للميلاد، والتحقَ هناك بمدرسة فرنسيّة، ولعلّ هذا ما ساعده في إتقان اللغة الفرنسيّة أكثر، واتّجه بعدها لكتابة أعماله الأدبية بهذه اللغة التي تعلمها في دراسته الابتدائية، أمّا عن عمله فقد كان مدرّسًا للفلسفة في الرباط، وبقي في هذا المجال إلى أن صدر قرار من الحكومة المغربية بتعريب مادة الفلسفة، وعندها قرر أن ينتقل إلى فرنسا على إثر هذا القرار وحصل على شهادة عليا في علم

النفس، وبعدها بدأ في عمله يتجه إلى نشر المقالات والشعر في صحيفة في باريس اسمها صحيفة لوموند، وكان يعمل بصفة كاتب مستقل فيها، وممّا يجدر ذكره أن الطاهر بن جلون عندما كان طالبًا تم اعتقاله في المغرب عام 1966 للميلاد وذلك بسبب مشاركته في مظاهرات سياسية مع أربعة وتسعين طالبًا آخر، وبعد أن أُفرج عنه تخلى عن الحراك السياسي وتوجه بتفكيره نحو التأليف والعمل الأدبي، وكانت هذه الفترة التي اعتُقل فيها الطاهر بن جلون هي الحافز الأساسيّ الذي دفعه إلى الكتابة، حتى أنّه بعد مدة طويلة من هذا الحدث الذي حصل في حياته أنتج عملًا أدبيًا يسرد فيه تفاصيل هذه الفترة العصيبة وما لاقاه خلالها، إضافة إلى أنها كانت دافعًا للتوجه إلى الكتابة في مجال أدب السجون وتفاصيلها وما يحصل خلف قضبانها في أعماله الأدبية الأخرى التي أنتجها.

المسيرة الأدبية للطاهر بن جلون يُوصف الطاهر بن جلون بأنه شاعر وكاتب فرنسي، فجميع أعماله مكتوبة باللغة الفرنسية وتمّت ترجمتها إلى العربية والإنجليزية، بدأ بكتابة الشعر في صحيفة فرنسية، وبعدها انتقل للقصة والرواية وغلب على أدبه الطابع الفلكلوريّ والعجائبيّ، ومع أنّه دافع عن قضايا المرأة وحقوقها وسلّط الضوء على الكثير من المشكلات التي تتعرّض لها المرأة، إلا أن الطابع الذكوري لم يكن خافيًا على القارئ في كثير من أعماله الأدبية، ولما كان للاعتقال ذكرى مؤلمة في حياته كان لا بد أن يؤثر هذا الأمر على الأعمال الأدبية التي يكتبها، إذ إنه سلط

الضوء في بعض أعماله الأدبية على السجون وعتمتها وما فيها من تعذيب وعنف دموي وأذى نفسي مستندًا في أغلب هذه الأعمال على أحداث واقعية حصلت فعلًا ولم يبتدعها من خياله.

ولا يمكن أن يتجاهل –فيما يكتب– معاناةَ المهاجرين العرب والمسلمين في فرنسا وما يلاقونه من مصاعب ومشكلات في بلاد الاغتراب، ومن الأمور التي كانت تزعج الطاهر بن جلون هي ترجمة أعماله الأدبية إلى العربية ترجمة غير صحيحة، وكان يعاني من القرصنة لكتبه في ترجمتها ترجمة حرفية تذهب بجوهرها ومضمونها وتبعدها عن المستوى الأدبي الذي تتمتع به بلغة كتابتها؛ أي الفرنسية، وأشار في أحد تصريحاته إلى أن الترجمات لكتبه في سورية رديئة وأنهم حتى لا يراجعونه إذا ما واجهوا صعوبة في نقل المعنى إلى العربية، ونصح أن دار طوبقال في ترجمتها لأعماله هي الأقرب إلى النسخة الأصلية المكتوبة بالفرنسية.

مؤلفات الطاهر بن جلون يزخر نتاج الطاهر بن جلون بالأعمال الأدبية التي تنوّعت ما بين رواية وشعر ومجموعات قصصيّة، ولكلّ عمل من هذه الأعمال سببٌ وغاية ورسالة يريد الكاتب إيصالها للمتلقي، ومن أبرز أعمال الطاهر بن جلون التي كان لها الصّدى الكبير في الأوساط الأدبية:

رواية نزل المساكين: صدرت عام 1997، تعكس هذه الرواية الأخطاء التي تملأ العالم، والصراعات التي يعيشها البشر والأحقاد بين الديانات، وعدم تقبل الآخر، فهي

تصوّر قذارة الحياة وقسوتها، وتؤكّد أن الملجأ الحقيقي من هذا الصراع هو الحب الإنساني النقي. رواية الكاتب العمومي: صدرت 1998 للميلاد، وفيها استدعاءات لذكريات وخيالات في البلاد المهانة المتعبة، وصراعات الفقر والخوف والجوع، ووصف القمع والاستبداد في بلاد لا تعرف من الديمقراطية إلا لفظها. رواية البلد: يتطرق في هذه الرواية إلى مشكلة اجتماعية كبيرة عانى منها الكاتب نفسه، وما زال الناس يعانون منها إلى الآن، وهي كيفية تربية الأولاد الذين وُلدوا بعيدًا عن بلدهم ومحاولة الأهل فرض عادات وأعراف اجتماعية عليهم وهم لا يعرفونها أساسًا ولم يروها أمام أعينهم. رواية تلك العتمة الباهرة: صدرت عام 2001، رواية واقعية مأخوذة من شهادة معتقلين تم اعتقالهم في سجن تزمامارت في المغرب بسبب اتهامهم بالمشاركة في الانقلاب العسكري، ويصف ما كابدوه خلال فترة اعتقالهم في ظلمات السجون. رواية حين تترنح ذاكرة أمي: صدرت عام 2006، فيها ينقل الآلام التي اعتصرت في قلبه عندما رأى أمّه أمامه مصابة بالزهايمر، تخلط الحاضر بالماضي، ولا تستطيع أن تميّز أحفادها من أبنائها. رواية أن ترحل: صدرت عام 2006 يسلط فيها الضوء على معاناة شباب المغرب وحُلمهم بالسفر إلى الضفة الأخرى من المحيط وهي إسبانيا، وما يعانونه من اضطهاد واستغلال في سبيل الحصول على تأشيرة. رواية ليلة القدر: رواية تجمع بين المتناقضات في طياتها، وتدور فكرتها الرئيسة حول امرأة وقفت بثبات وقوة لتثبت ذاتها أمام مجتمع ذكوري متسلط، ولو كان

هذا الإثبات للذات ثمنه العزلة والبعد عن المجتمع. انتقادات حول الطاهر بن جلون بالرّغم مِن أنّ الطاهر بن جلون لاقى من الشهرة ما لاقاه، لا سيما بعد أن توجه إلى الكتابة باللغة الفرنسية، وما اكتسبته اعماله من شهرة كبيرة بسبب ترجمتها أيضًا، لكن لا بد من وجود بعض الانتقادات حول شخصيته وطريقة تفكيره، وأكثر ما أثار جدلًا حول الطاهر بن جلون هو تقديسه للغرب، وذلك بعد إصراره على أنه كاتب فرنسي لا كاتب مغربي، كما أنه حوّل بلاده إلى فلكلور يتعرف إليه الفرنسيون في الأعمال الأدبية التي يكتبها، ومما يجدر ذكره أن محاولته في جعل أدبه فلكلوريًا لم تنجح؛ لأن كتبه في فرنسا كانت تُباع تحت تصنيف الكتب الأجنبية وهذا ما جعل الطاهر بن جلون يعبّر عن استيائه من هذا التصنيف لنتاجه الأدبيّ؛ إذ إنه حاول أن يقلد المستشرقين في أعمالهم لكن هذه المحاولة لم تلقَ نجاحًا كبيرًا، وهذا ما جعله يمتعض من عدم تصنيف كتبه في فرنسا كما كان يطمح، ويمتعض من الترجمة الرديئة لكتبه في بعض البلدان العربية. اقتباسات للطاهر بن جلون إن ما عُرض من نتاج أدبيّ فيما سبق من المقال للطاهر بن جلون هو غيض من فيض، إذ إنّ له الكثير من الأعمال الروائية الأخرى مثل رواية هلوسات على جدار الوحدة، ورواية السعادة الزوجية، ورواية ليلة الخطأ، ورواية ليلة الغلطة، ورواية المرتشي، إضافة إلى مجموعات قصصية وبعض القصائد، وفيما يأتي بعض الاقتباسات من أعماله:

طبعًا كان مُقدّرًا لنا أن نموت، ولكن ليس على الفور، إذ ينبغي أن نعاني، أن نحيا على مرِّ الثواني.

إن أكثر الأمور الاعتيادية تفاهة، تصبح في المحن العصيبة غير اعتيادية، لا بل أكثر ما يُرغَب فيه من أمور الدنيا.

فاصمُتْ، وحاول أن تفكّر تبعًا لوتائر تنفسّك، تعلم أن تستسيغ الصمت. ردد في سرك أن الصمت مريح لك و للآخرين. إنه أمر حيوي لنا أن ننعم بالصمت، فقد يكون الصمت عوضًا عن النور الذي نفتقده.

قال لي إنّي أتألّم من الداخل، أعاني حَصرًا يُثقل على قلبي وصدري، أقرأ الكتاب العزيز أبتهل إلى الله ورسوله ثمَّ أجدني عند نقطة البدايه وحيدًا متروكًا ألتفُّ حول نفسي وأكاد أموت شرقًا بسيولٍ من الكلمات أشعر بألم في أحشائي، إنّي أحدثك اليوم عن الأمر لأني لا أرى مخرجًا سوف أموت قبل أن ألمح الشمسَ والنور مجددًا

الأعمال الروائية:

" •حرودة"، 1973

" •موحى الأحمق، موحى العاقل"، 1981

" •صلاة الغائب"، 1981

" •أقصى درجات العزلة"، 1981

" •طفل الرمال"، 1985

" •غزالة .. وتنتهي العزلة"، 1987

" •الليلة المقدسة"، 1987

" •يوم صامت في طنجة"، 1990

" •المرتشي"، 1994

" •ليلة الغلطة"، 1996

" •نزل المساكين"، 1997

" •الكاتب العمومي"، 1998

" •ليلة الخطأ"، 1999

" •أعناب مركب العذاب"، 2000

" •مأوى الفقراء"، 2001

" •تلك العتمة الباهرة"، 2001

" •حين تترنح ذاكرة أمي"، 2006

" •أن ترحل"، 2006

" •هلوسات على جدران الوحدة"، 2008

" •البلد"، 2010

" •السعادة الزوجية"، 2014

" •حنين إلى نكهة الصبا"، 2015

" •عشر ليالٍ وراوٍ"، 2016

أعمال الأخرى:

" •ذاكرة المستقبل" (القصيدة الجديدة بالمغرب)، 1976

" •في غياب الذاكرة" (ديوان شعري)، 1980

" •الحب الأول هو دائما الأخير" (مجموعة قصصية)، 1995

" •الحب الأول الحب الأخير"، 1997

التطبيق الخامس :

محمود المسعدي :كاتب ومفكر تونسي. ولد سنة 1915 في قرية " تازركة " ولاية نابل بتونس .وبدأ تعليمه في كتّاب القرية حيث أتم حفظ القرآن قبل أن يبدأ مرحلة التعليم الابتدائي في العاصمة. ثم أتم الدراسة الثانوية في المعهد الصادقي عام 1933وفي العام نفسه، التحق بكلية الآداب بجامعة السوربون ليدرس اللغة العربية وآدابها، وتخرج منها عام 1936، وشرع في إعداد رسالته الأولى " مدرسة أبي نواس الشعرية "، ورسالته الثانية حول " الإيقاع في السجع العربي "، إلا أن الحرب العالمية الثانية قد حالت دون إتمامهما. ونشرت الثانية، لاحقاً، بالعربية والفرنسية .وقام المسعدي بالتدريس الجامعي في كل من تونس وفرنسا.

وإلى جانب التدريس الجامعي، انخرط المسعدي في السياسة، حيث تولى مسؤولية شؤون التعليم في حركة الإستقلال الوطني التي التحق بها مناضلا ضد الإستعمار الفرنسي، كما لعب دورا قياديا في العمل النقابي للمعلمين.

بعد الاستقلال عام 1956، تولى المسعدي وزارة التربية القومية، وحيث أسس الجامعة التونسية، وكان قد تمكن من إقرار مجانية التعليم لكل طفل تونسي وفي 1976، تولى المسعدي وزارة الشؤون الثقافية وبالإضافة إلى تلك المسئوليات، كان للكاتب نشاط وافر في منظمتي اليونسكو و مجمع اللغة العربية في الأردن .وكذلك أشرف على مجلة " المباحث " عام 1944، ثم على مجلة "الحياة الثقافية" عام 1975.

كتب المسعدي أعماله الهامة بين العامين 1939 و 1947وتكشف هذه الأعمال عن التأثير القرآن على تكوينه الفكري والعقائدي وعلى أسلوبه. كما تتم أعماله عن إحاطته بأعمال المفكرين المسلمين في مختلف العصور،

وبالأدب العربي القديم التي بدأ اهتمامه بها منذ مرحلة دراسته الثانوية، بالإضافة إلى اطلاعه الواسع العميق على الآداب الفرنسية خاصة والغربية عامة.

انتُدب للتدريس بمركز الدراسات الإسلامية في باريس عام 1952م. تقلد عدة مسؤوليات في نطاق حركة التحرير الوطني. انضم إلى الحركة النقابية رئيسا للجامعة القومية لنقابات التعليم وأمينًا عامًا مساعدًا للاتحاد العام التونسي للشغل من سنة 1948م إلى 1954م. شارك في المفاوضات التونسية الفرنسية التي أفضت إلى الاستقلال الداخلي سنة 1955م. بعد الاستقلال انتخب عضوًا بالبرلمان من 1959م إلى 1981م، ثم رئيسًا له من 1981م إلى 1986م. عين وزيرًا للتربية القومية، ثم وزيرًا للثقافة في الفترة من 1973 إلى 1976م. كان له أنشطة مكثفة ومسؤوليات سامية في منظمتي اليونسكو منذ عام 1958م.

مؤلفات محمود المسعدي:

يعد الراحل محمود المسعدي من أبرز أدباء تونس، وكان له تأثير عميق في تكوين أجيال عديدة، وقد جعلت منه أعماله الخالدة أحد أبرز الأدباء العرب، وله العديد من المؤلفات أهمها: السد مسرحية السد التي بدأ المسعدي كتابتها في عام 1940م وتمت طباعتها للمرة الأولى عام 1955م، وهي الأثر الأهم لمحمود المسعدي، وتكمن أهمية الكتاب من الموضوع وزمن الكتابة

والاستدعاءات الكثيرة التي استعملها المسعدي في متنه، مثل: الميثولوجيا، والأفكار الوجودية، والتراث العربي الإسلامي، في توليفة عجيبة أخرجت السد من التناول المحلي إلى النظر الإنساني الواسع كان كتاب السد خلاصة رؤية المسعدي للوضع التونسي زمن الاستعمار الفرنسي والتشوق إلى الاستقلال، لكن لغته وأسلوبه وثقافة الكاتب حولته إلى أثر إنساني لا يموت.

حدث أبو هريرة قال :

حدث أبوهريرة قال كتبت عام 1940م وطبع العمل كاملًا عام 1973م، وصدرت الترجمة الألمانية عام 2009م، ويعتبر هذا النص من أهم النصوص المؤسسة للسرد التونسي والعربي الحديث، وقد اختير كتاسع أفضل مائة رواية عربية في القرن العشرين، وتعد الرواية جماع أفكار المسعدي الوجودية، والفلسفية، والجمالية، إذ طرح فيها أفكاره من خلال شخصية أبي هريرة الذي خاض تجارب وجودية شتى بحثًا عن ذاته، واستلهم المسعدي نصه من التراث السردي العربي الإسلامي، واتخذ من الخبر أسلوبًا خاصًا في الكتابة نقل به مغامرات الأبطال. تأصيلا لكيان الذي جمع فيه شتات كتاباته الأدبية والفكرية طوال حياته،وهو مجموعة مقالات ومحاضرات في الأدب والفلسفة والثقافة، وهي: "صحائف كتبت على وجه الدهر مختلفات، تمحيصًا للرأي والتعبير، وحفاظًا لعهد الفكر جلاله، والقلم حريته والآباء حرمته، والجهاد آدابه، في

فترات توالت وتباعدت في الزمن العديد، وتقاطعت متصلة في امتداد سؤال واحد لا يزال حتى اليوم ينشد جوابه، ومن أقدم القدم كان السؤال: "لزوم ما لا يلزم في كيان الإنسان"، كما جاء في تقديم محمود المسعدي نفسه لها.[٨] مولد النسيان رواية مولد النسيان نشرت للمرة الأولى عام 1945م، وترجمت إلى الفرنسية عام 1993م، والهولندية عام 1995م، والترجمة الألمانية صدرت في مارس 2008م.[٩] من أيام عمران نشر بوساطة رياض خليف في الشروق يوم 18/ 06/ 2005م،[١٠] وقام بتحقيقه وتقديمه الدكتور محمود طرشونة، وقرأه قراءة نقدية الناقد توفيق بكار، والذي صدر منذ أيام قليلة سيعيد الجدل الدائر حول كتاباته، لا سيّما أن آخر كتاب له صدر منذ أكثر من ربع قرن.[١١] لقد روى المسعدي قصة إنسان في مختلف مراحل حياته من النزول الى الموت في البحر وقد مر بتعرفه على امرأة والتعاطف بينه وبينها والخوض معها في جدل الحياة، فهذا الكتاب اتخذ موضوعًا لم تخرج عنه كتابات المسعدي وهو البحث في ماهية الإنسان وقضاياه الوجودية كما اتكأ على أسماء تراثية، فمثلما كان غيلان وميمونة من التراث كانت ريحانة وأبو هريرة وها هو عمران ودانية.[١٢] أشهر أقوال محمود المسعدي من أشهر أقوال الكاتب محمود المسعدي ما يأتي:[١٣] مقدار من الجنون لا بدّ منه من أجل مقدار من الحرية. الأرض طواعية

للرجال الذين يملكون الأمل ويقدرون على تحدّي المستقبل. أعطوني زراعة أضمن لكم حضارة.

جوائز حاز عليها محمود المسعدي:

من أبرز الجوائز التي حصل عليها الكاتب والمفكر محمود المسعدي ما يأتي: الصنف الأكبر من وسام الاستقلال، جوائز وطنية ودولية أخرى،وسام الاستحقاق الثقافي. الصنف الأكبر من وسام الجمهورية. جائزة الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة لسنة 1979م.

توفي الأديب الكبير محمود المسعدي فجر يوم الخميس الموافق السّادس عشر من شهر ديسمبر(كانون الأول) من عام 2004م، عن عمر يناهز أربع وستين عامًا، وكانت وفاته خسارة عظيمة للشعب التونسي فقد مثّل المسعدي مدرسة متفرّدة في الأدب العربي، إضافة إلى نشاطه الحكومي الواسع.

كتب المفكر والكاتب التونسي محمود المسعدي أهم أعماله ومؤلفاته في الفترة بين العامين 1939م و1947م، وتكشف هذه الأعمال والمؤلفات عن مدى تأثره بالقرآن الكريم ومدى انعكاس ذلك على أسلوبه الأدبي، وتكوينه الفكري والعقائدي.

محمود المسعدي.. مؤسس النظام التعليمي والأديب الإنساني

"الأدب مأساة أو لا يكون".. مقولة علقت بأذهان الكثيرين وكتبها ذات يوم الكاتب والمفكر والسياسي التونسي محمود المسعدي الذي خلّد اسمه في تاريخ تونس والعالم العربي كأديب ملتزم بقضايا بلاده وواقعها وآمن أن الأدب جدّ والتزام وإحدى أهم وسائل إثبات الذات وتأصيل الكيان.

كانت أغلب دروس محمود المسعدي محاضرات تحدث خلالها بغزارة عن رسالة الأدب وجوهره

ولد محمود المسعدي في منطقة تازركة بولاية نابل في 28 جانفي/ كانون الثاني 1911. بدأ تعليمه في كتاب القرية أين أتمّ حفظ القرآن ليزاول إثر ذلك تعليمه الابتدائي في قربة. وأنهى دراسته الثانوية في المعهد الصادقي سنة 1933. وفي العام ذاته التحق بجامعة السوربون بباريس ودرس اللغة العربية وآدابها ليتخرّج سنة 1936.

لم يتمكن المسعدي بسبب الحرب العالمية الثانية من إتمام رسالته الأولى التي حملت عنوان "مدرسة أبي نواس الشعرية" ورسالته الثانية التي كانت بعنوان "الإيقاع في السجع العربي" والتي نشرت لاحقًا باللغتين العربية والفرنسية.

قام محمود المسعدي بالتدريس الجامعي في كلّ من فرنسا وتونس وكان من أكثر المربين تميزًا. ودرّس في معهد كارنو والمعهد الصادقي قبل انتدابه للتدريس في مركز الدراسات الإسلامية في باريس عام 1952. وكانت أغلب دروسه محاضرات تحدث خلالها بغزارة عن رسالة الأدب وجوهره بطريقة تقوم على الجدّ والحزم والتخاطب بعيدًا عن الابتذال وترك بصمة عميقة في نفوس تلاميذه الذين كانوا أول من يقرأ مقالاته التي كان ينشرها في مجلّة المباحث.

اقرأ/ي أيضًا :توفيق بكار.. عراب النقد الأدبي الذي أوصى خيرًا باللغة العربية

مسيرة محمود المسعدي الأدبية المميّزة لفتت انتباه عميد الأدب العربي طه حسين ودفعته إلى الإقرار أنه احتاج أن يقرأه ثلاث مرات

وبالتزامن مع مسيرته كأستاذ، فرض المسعدي اسمه كأحد أهم الأدباء على الصعيد العربي من خلال عدد من الأعمال والمؤلفات التي لاقت رواجًا كبيرًا على غرار "حدث أبو هريرة قال" و"السد" و"مولد النسيان" وغيرها، والتي اهتم فيها بمعالجة المنزلة الإنسانية.

مسيرة محمود المسعدي الأدبية المميّزة لفتت انتباه عميد الأدب العربي طه حسين ودفعته إلى الإقرار أنه احتاج أن يقرأه ثلاث مرات إذ قال حسين في محاضرة ألقاها في تونس سنة 1957 إنه قرأ السد مرتين واحتاج إلى قراءة ثالثة.

ولكن الكتابة والتعليم لم يبعدا محمود المسعدي عن اهتمامه والتزامه بالقضايا الوطنية إذ التحق بالنضال النقابي إلى جانب الزعيم فرحات حشاد فكان سنده الثقافي في المعركة النقابية والتحررية. تقلّد عدة مسؤوليات في نطاق حركة التحرّر الوطني وتولى رئاسة الجامعة القومية لنقابات التعليم. كما كان أمينًا عامًا مساعدًا للاتحاد العام التونسي للشغل من سنة 1948 إلى غاية 1954.

شارك المسعدي كذلك في المفاوضات التونسية الفرنسية التي كان مآلها الاستقلال الداخلي سنة 1955. وبعد الاستقلال تمّ انتخابه عضوًا في البرلمان من عام 1959 إلى 1981 ليترأسه من 1981 و1986.

مسيرة المسعدي تواصلت وتمّ تعيينه وزيرًا للتربية القومية ثمّ وزيرًا للثقافة من 1973 إلى 1976. ولعلّ بصمته تجلّت بشكل خاص وواضح وخلّفت أثرًا كبيرًا في المرحلة الأولى من بناء الدولة وتأسيس جيل متميّز في المرحلة الأولى لتونس بعد الاستقلال.

كان لمحمود المسعدي باع كبير في ما سمي بـ"العصر الذهبي" للتعليم في تونس

فقد كان لمحمود المسعدي باع كبير في ما سمي بـ"العصر الذهبي" للتعليم في تونس.

فقد ساهم في إرساء نظام تربوي أفضى إلى خلق جيل متميّز ظهرت بعده رجالات ساهمت في قيادة البلاد وإطارات إدارية قادت دفتها. وقام في هذا الإطار بعديد الإصلاحات فأصبح التعليم مجانيًا وإجباريًا. وتمّ التخلي عن التعليم التقليدي المتمثل

في التعليم الزيتوني أساسًا والتوجه نحو تعليم عصري بات مصعدًا اجتماعيًا مكّن أبناء الطبقة الفقيرة والمتوسطة من تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية.

تجربة المسعدي في إصلاح المنظومة التربوية لاقت نجاحًا باهرًا قبل أن يقع تغييرها مع بداية حكم الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي، وهي تجربة اعتبر وزير التربية السابق ناجي جلول في أحد حواراته أنها "كانت مرحلة تأسيس للنظام التعليمي ومرحلة كفاح ضد الأمية ونشر المدارس وأنها قد كلّلت بالنجاح."

محمود المسعدي، الذي غادرنا في 16 ديسمبر/ كانون الأول 2004، هو إذًا علم من الأعلام التونسية التي كانت لها بصمة في أكثر من مجال، فكان مساهمًا في خلق رجالات دولة وأستاذًا تشبّع على يديه مئات الطلبة بالأدب وجوهره ومدى التزامه بالإنسان وأديبًا ذات صيت كبير في العالم العربي. ولعّلنا اليوم بأمس الحاجة للاستئناس بتجربة المسعدي في الإصلاح التربوي حتى تنهض البلاد مجددًا من مستنقع الفقر والأمية الذي بدأت تغرق فيه من جديد.

مسرحية السد لمحمود المسعدي و التفكير الوجودي :

مسرحية السد، التي بدأ المسعدي كتابتها في العام 1940، وطبعت للمرة الأولى عام 1955، هي الأثر الأهم للمسعدي.

أهمية الكتاب تنبع من الموضوع وزمن الكتابة والاستدعاءات الكثيرة التي استعملها المسعدي في متنه: الميثولوجيا والتراث العربي الإسلامي والأفكار الوجودية، في توليفة عجيبة أخرجت السد من التناول المحلي إلى النظر الإنساني الواسع.

محمود المسعدي لم يكن فقط أديبا أو كاتبا أو مفكرا، كان سياسيا ونقابيا وفاعلا أساسيا في الشأن التونسي العام في مفصلين مهمين: مرحلة مقاومة الاستعمار ومرحلة بناء الدولة الوطنية. انخرط في العمل السياسي والنقابي قبل الاستقلال، توازيا مع جهده الأكاديمي والتدريسي، ثم تقلد منصب وزارة التعليم بعد الاستقلال، في زمن بورقيبة، وكان مشرفا على تنفيذ أفكار الدولة الوطنية من قبيل التعليم المجاني والإجباري. تقلد أيضا مناصب مهمة في منظمتي اليونسكو والألكسو ومجمع اللغة العربية في الأردن، قبل أن ينهي حياته السياسية رئيسا (مستقلا) لمجلس النواب في تونس بين 1981 و1987.

كان كتاب السد خلاصة رؤية المسعدي للوضع التونسي زمن الاستعمار الفرنسي والتوق إلى الاستقلال، لكن لغته ومرجعياته وثقافة الكاتب حولته إلى أثر إنساني لا يموت.

لن نجانب الصواب إن قلنا بأن هناك مؤلفات تؤثر في أصحابها حصرا، وأن هناك مصنفات تنسحب دائرة سطوتها الناعمة على جيل واحد من قرائها، وأن هناك كتبا بسطت نفوذها الاعتباري والرمزي على الجيل الذي اجترح النص خلاله ومن أجله وعلى الأجيال العاقبة له.

"السدّ" للكاتب التونسي محمود المسعدي ينتمي إلى الصنف الثالث من ضروب المؤلفات، لا فقط لأنّه مدرج بيداغوجيا ضمن المقررات الرسمية لتلاميذ الباكالوريا آداب في التعليم التونسي الرسمي، بل لأن النص حامل لأوجه الفكر والفلسفة ضمن المدونة العربية والغربية، وجامع لصنوف التحبير والتعبير وحاضن لتجربة فلسفية وجودية استنبتها الكاتب المسعدي في تضاريس وتخوم العقل العربي الإسلامي.

النضال نحو الاستقلال

الكتاب على قلة صفحاته، أثار نقاشا مستفيضا بين المشتغلين في الأدب والمسرح من جهة، وبين العاملين في التحقيب المعرفي لتاريخ الأفكار والمنظومات الفلسفية من جهة ثانية

تضعنا المقاربة التاريخانية للحظة ولادة النص في أربعينات القرن الماضي حيث كان صاحب "السد" مرتحلا بين جامعات فرنسا، ومستقرئا لتجربة إنسانية قوامها الفلسفة الوجودية لجون بول سارتر بدايات اندلاع الحرب العالمية الثانية.

تجمع كافة الدراسات التاريخية على أن السد حبّر في الفترة الممتدة بين 1939 و1940، أي عسكريا واستراتيجيا في الأعوام البكر لسنوات الجمر الست على العالم برمته، وفلسفيا مع مخاض التأصيل لفلسفة قداسة التجربة الإنسانية وتقديس الحياة في مقابل براديغمات الدعاية للعرق الأفضل والجنس الأحسن، وعنصرية الهويات القاتلة في مقابل الإنسانية المقتولة.

وهي أيضا مرحلة التراكمية النضالية التونسية في وجه الاحتلال الفرنسي، مع تقاطع الفعل السياسي بالفعل النقابي وبالتأسيس الاجتهادي الديني مع مدونة فقهية جريئة للمصلح الطاهر الحداد، وهي مقدمات تلاقح روافد النضال السياسي مع الميثاقية النقابية مع الإصلاح الديني والمجتمعي، سرعان ما تجسّدت أفكارا وأسفارا في نص السد، بعد أن تجسمت تجارب معيشية خاضها محمود المسعدي مع الحزب الدستوري الحر ومع الاتحاد العام التونسي للشغل ومع تلاقيه التاريخي والمعرفي مع نخبة من الإصلاحيين الدينيين.

كما تضعنا المقاربة المعرفيّة –بمعنى تاريخ الأفكار– في مرحلة التقابس وفق مفهوم المفكر الإصلاحي التونسي محمد الطاهر بن عاشور حيث يكون التفاعل الاقتباسي من حيث المعنى والمبنى تأسيسا لمفهوم الحضارة في بعدها الإنساني.

هكذا سار محمود المسعدي بـ"السد" وبقارئيه أيضا بين ملحمة الأسطورة الإغريقية ومأساتها، وبين الوجودية واستحقاقاتها، وبين الأنثروبولوجيا العربية وملامحها اسما ورسما، وبين القلق النيتشوي تارة، وأحاديث الأنا والأنا الأعلى في المدونة الفرويدية تارة أخرى.

طرق المسعدي قبل أوان التأصيل العلمي بوابة "التناص"–من حيث تعدد روافد النصوص في المتن الواحد– لا "النصّ"، فيصعب قراءة أو استقراء السد بعين واحدة أو زاوية يتيمة أو منظومة معرفية محددة، في العمق هو تناص الفلسفات وتقاطع الأفكار واجتماع المعاني والمباني. وفي المحصلة أيضا هو التناص الذي يفرض على صاحبه عُدّة معرفية للقراءة ويفتح له آفاقا رحبة في التبصر والتمعن بعيد طي الغلاف.

كتابات المسعدي، تجربة حياة للقارئ قبل البطل، تعيد كتابات المسعدي القارئ إلى شخصه وشخوصه فتحرك فيه الساكن من الأسئلة وتضرب عاليا ركام المسلمات الرابضة وراء استمراء أنصاف الإجابات على الاستفسارات العميقة عن الذات والوجود والماهية والفعل.

جدلية السد :

الكتاب على قلة صفحاته، أثار نقاشا مستفيضا بين المشتغلين في الأدب والمسرح من جهة، وبين العاملين في التحقيب المعرفي لتاريخ الأفكار والمنظومات الفلسفية من جهة ثانية.

فبالنسبة للأوائل، حرك السد جدالا عميقا حول طبيعة النص وتصنيفه، ذلك أنه يستل من فنون الرواية الكثير من الضروب والمحددات، ويستقي من محددات المسرحية العديد من الضوابط والأشكال، ودون دخول في ملابسات النقاش وطياته، إلا أنه أفضى في المحصلة إلى "تحرير التعريف والتصنيف" بين الرواية والمسرحية.

ولئن آل الكاتب المصري الراحل توفيق الحكيم على نفسه تعريف نص "بنك القلق" بأنه "مسرواية"، بمعنى التآلف والتجميع بين الرواية والمسرح في متن واحد، فإن محمود المسعدي جعل من "السد" متنا جامعا بين مختلف صنوف الكتابة وخيطا ناظما للعديد من المقاربات الفلسفية ونقطة تقاطع بين جملة من السرديات وهو بهذا كما أسلفنا الذكر ينظر ويؤصل لـ"التناص" و"التفكرية" أكثر من عمله على وحدة النص والتفكير الواحد.

ما بين "غيلان" البطل الملحمي لـ"السد" الذي يكابد المخاطر والمحاذير من أجل بناء السد على أرض قاحلة بور، قصد استحصال الزرع واستنبات الحياة، وبين "ميمونة" صاحبته ونقطة ضعفه وصوته الذي يعذبه بألوان تذكيره بالقصور عن التغيير، وبين

"صاهبّاء" آلهة القحط والجفاف والقيظ التي تتوعده بالويل والثبور إن هو كابد حلمه وكابر ضعفه، وبين "ميارى" القوة النقيضة لميمونة حيث الدفع إلى الفعل والتحريض على مقاومة صاهبّاء، من الصعب على القارئ أن يحدد مجال الزمان والمكان في سردية السد، فتقريبا لا وجود لمحددات مكان معين أو ضوابط زمان دقيق على طول المتن، فقد يكون المطلق من الأحياز هو المراد بالنص، ذلك أن إنسانية المقصد والرسالة وأنسنة الموضوع والمراوحة بين ميكانيزمات تفكير عديدة وكثيرة قد تكون دفعت المسعدي إلى اختيار أرض بلا جغرافيا وزمن بلا تاريخ.

على مدى فصول السد وضع المسعدي بطله غيلان وسط ملحمية إثبات الذات وتكريس الفعل في وجه إرادة الآلهة صاهبّاء، متبوعة بجمع من زبانيتها الذين لم يترددوا في وضع العراقيل والحواجز أمام غيلان وسده.

المفارقة أنه كلما ازدادت الأوضاع سوءا والآلهة غضبا والأتباع تمردا أو نفورا وميمونة تثبيطا، كان منسوب التحدي لدى غيلان يزيد باطراد وكان استحقاق المكاسرة والمحاربة يفيض من لسانه ويهيج به وجدانه كلما اقتربت لحظة المواجهة. فالأرض لا تتحمل إلهين اثنين، والسدّ لا يقبل فرضيتين متقابلتين، فإما أرض قاحلة بور يمتد السواد فيها بلا نهاية، وإما سد يحول الأرض إلى مجال فعل وبناء وتغيير.

هكذا قال غيلان متوعدا الأرض وصاحبتها صاهبّاء "هذه الأرض المتجعّدة المغبارُ كالعجوز الفاجرة لأُحْبِلنّها ماء فأملأنَّ بطنها فأخرجنّ حياةً"، فهو المؤمن بأنّه "ليس في الحدود والعراقيل حد واحد ولا عقال واحد يعجز عن كسره العزمُ."

على مدى فصول السد وضع المسعدي بطله غيلان وسط ملحمية تكريس الفعل في وجه إرادة الآلهة صاهباء، متبوعة بجمع من زبانيتها

أما وعيد صاهبّاء لغيلان فكان تكريسه في الفصل النهائي لكتاب السد، حيث تلبدت السماء بالغيوم واكفهرت سحب الغضب والانتقام، وارتفع غيلان من الأرض إلى عنان السماء.

هكذا أنهى المسعدي نصه، فإما حياة الملحميين في الأرض وإما ختام الخالدين في السماء، بقي سد غيلان مشروعا بلا نهاية عسى أن يجول في خاطر قارئ نص المسعدي أن هناك أكثر من سد على أراضينا لا تزال تنتظر أمثال غيلان لاستكمال المشروع. فمسار الاجتهاد الفكري والثقافي سد غير مكتمل البناء، ومسار السيادة الاقتصادية والاجتماعية سدّ ثان لم تجسر هوّته بعد، وما أكثر السدود غير المنتهية في أوطاننا.

عبر الأستاذ الجامعي محمود طرشونة عن نص "السد" بأنه "أدب المريد"، حيث يصبح الأدب مجالا لفعل الإرادة الإنسانية وتكريسا لرغبة الإنسان في التغيير

والتأصيل وتحدي "آلهات" الجمود والتخلّف والركون، فيما أكد الأستاذ الجامعي والناقد الأدبي الراحل توفيق بكار في مقدمته الشهيرة أن غيلان بنى سده بالحجارة والمسعد يبني "سده" بالعبارة، وبين قوة الحجارة وجزالة العبارة سطوة الملحمية الإنسانية حين تهفو إلى البناء والتأصيل.

من المحلي إلى الإنساني

عبارات المسعدي، هي في المحصلة أيضا قاطرة الارتحال من المحلي إلى الإنساني، فالنصّ قُدّ بأسلوب لغويّ أثيل أصيل متجذر في روافد النصوص الدينية الإسلامية، ليكون النص جامعا بين المبنى القرآني الجمالي والمعنى الملحمي الوجودي، وهو مفصل طريف وقفت عنده الكثير من الدراسات اللغوية والألسنية في الجامعة التونسية على رأسها دراسة الدكتورة ألفة يوسف حول تأثير النص القرآني في كتابات المسعدي، السد نموذجا.

وعلى أثر السد وآثاره أيضا، كتب المسعدي كتابه "حدّث أبو هريرة قال"، وهناك من يعتبر أنه كتابه الأول قبل السد، وفي كلتا الحالتين فإن الفترة ما بين المؤلفين لا تتجاوز الأشهر، و"تأصيلا لكيان" و"مولد النسيان" 1945، و"من أيام عمران" نشر في 2002، كلها مؤلفات تدور حول ماهية الذات وكينونة الإنسان والمطلب الوجودي.

صحيح أن كتابات محمود المسعدي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ولكن أثرها تجاوز الجيل الواحد والتراب الواحد أيضا، فمعظم كتاباته انتشرت في أوروبا وترجمت أعماله إلى الفرنسية والإسبانية والألمانية والهولندية وغيرها من الألسن.

ولئن نال الاستشراق من كتابات المسعدي النصيب الوفير، فإن كتابات المسعدي وعلى رأسها "السد" و"حدث أبو هريرة قال" لم تجد طريقا سلسا وسهلا إلى الجامعات العربية والخليجية على وجه التحديد، وعانت مؤلفاته في بعض الأقطار المنغلقة والمتحجرة من سطوة صورة نمطية سلبية ومن فاجعة عقال عقل عربي لم تتردد بنيته الارتكاسية يوما في إحراق كتب ابن رشد، الأمر الذي حال دون تفاعل مغربي مشرقي حقيقي حيال مدونة فكرية ومعرفية قل نظيرها مبنى ومعنى.

يقول محمود المسعدي عن منع كتبه في مرحلة سابقة من دخول بعض المعارض العربية "أعرف أنهم يعرفون عما ننتج في تونس القليل، وأعرف أيضا أنهم يعرفون القليل عن القليل أيضا"، هكذا ربط المسعدي وهو محق في ذلك بين المنع وبين "قلة المعرفة"، وهكذا أيضا ربط بشكل عكسي مقابل بين "القبول والمعرفة" وبين "التنسيب والتفاعل."

اليوم يفرض الواقع التونسي بمختلف حيثياته وملابساته استجلاب مصنف "السد"، لا فقط لأن الكثير من شباب تونس فقدوا معنى الجدوى والقيمة فرموا بأنفسهم فريسة

لمياه البحر تحت عنوان "الجنة الموعودة والجثة الموءودة في المتوسط"، أو انخرطوا في الأعمال الإرهابية وباتوا بندقية للإيجار بين الأطراف المتقاتلة في أكثر من دولة عربية، ولكن أيضا لأن مشاريع البناء والإصلاح والتغيير تحتاج ملحمية المقاومة والمجابهة في وجه صاهبّاء الفساد والتهريب والبيروقراطية الرتيبة داخليا، وصاهبّاء صندوق النقد الدولي والاشتراطات المجحفة خارجيا.

تونس اليوم في حاجة إلى أمثال غيلان وميارى ذلك أنها مليئة بأمثال صاهبّاء وجواسيسها من الميليشيات والعصابات الإجرامية، والأهم من كل ما سبق أنّ تونس –على أهمية من فيها من الأدباء– في حاجة إلى نصوص من الأدب المريد للحياة تأصيلا لحياة مريدة للأدب.

المسار الأدبي:

بدأت علاقته بالأدب بتأثير من الأدباء العرب القدامى والمفكرين المسلمين الذين سنحت له فرصة التعرف على آثارهم خلال دراسته في المعهد الصادقي العريق في تونس وبعد دراسته في كلية الآداب بجامعة السوربون بباريس.

كتب أهم مؤلفاته الأدبية خلال عمله مدرسا في معهد كارنو والصادقي، ولم يمنعه إنتاجه الأدبي من الاهتمام بشؤون وطنه الرازح تحت استعمار فرنسا.

ورغم أنه توقف عن الكتابة تقريبا في الأربعينيات –خلال فترة تقلده لبعض المناصب والمسؤوليات– فإنه لم يفقد مكانته الرائدة في المشهد الأدبي العربي حتى وفاته.

يعتبر المسعدي من أهم أعلام الأدب العربي الحديث، وقد ركز أدبه على بعض قضايا الإنسان كالحياة والموت والإرادة والحرية والمسؤولية والخلق والفعل والإيمان وغيرها من المشاكل التي تحير وجود الإنسان وتحثه دوما على البحث عن ذاته وإمكاناتها وحدودها.

المؤلفات

من أعماله: "حدث أبو هريرة قال" 1938، و"السد" 1940 و"مولد النسيان"، و"السندباد والطهارة" و"من أيام عمران".

نشر عام 1982 بحثا بالفرنسية بعنوان "الإيقاع في السجع العربي" ثم نشر مترجما سنة 1996، كما كتب افتتاحيات مجلة "المباحث" التي كان رئيس تحريرها، وألقى محاضرات جمعت في كتاب "تأصيلا لكيان" المنشور سنة 1979.

الجوائز والأوسمة

نال المسعدي الصنف الأكبر من وسام الاستقلال والصنف الأكبر من وسام الجمهورية وجائزة الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة لسنة 1979 ووسام الاستحقاق الثقافي وجائزة الألكسو وجوائز وطنية ودولية أخرى.

وقد كتب عنه ما يفوق 30 كتابا ورسالة جامعية فضلا عن عشرات المقالات والتسجيلات الإذاعية والتلفزية وترجمت آثاره إلى الفرنسية والإسبانية والهولندية وغيرها من اللغات.

جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس
المجلس العلمي
رئيس المجلس العلمي للكلية
السعيد قدار عبد القادر
2024/09/18

Scanné avec CamScanner

الفهرس

- المحاضرة الأولى : الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية (النشأة و التطور) ص 02
- المحاضرة الثانية : مراحل تطور الرواية المغاربية المكتوبة بالفرنسية ص 03.
- المحاضرة الثالثة : نماذج عن الكتابات المؤلفة باللغة الفرنسية ص 08 .
- المحاضرة الرابعة : أعمال محمد ديب بين واقع المجتمع و إبراز الهوية الجزائرية ص 13
  - التطبيق الأول ص 17
- المحاضرة الخامسة : نشأة الأدب المغاربي و إشكالية الهوية . ص 33
- المحاضرة السادسة : الظروف العامة لميلاد الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ص 38.
- المحاضرة السابعة : نشأة الأدب الجزائري المكوب بالفرنسية ص 45
- المحاضرة الثامنة : تطور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ص 49
- المحاضرة التاسعة : رواية ما بعد الإستقلال (ما بعد الكولونياليا) ص 55
- المحاضرة العاشرة : علاقة الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بالمجتمع ص 59
- المحاضرة الحادية عشر : إشكالية الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ص 68
- المحاضرة الثانية عشر : العلاقة بين الهوية و الثقافة ص 72
- المحاضرة الثالثة عشر : الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية و إشكالية الهوية و الإنتماء ص 77.
  - التطبيق الثاني ص 85
- المحاضرة الرابعة عشر : مولود معمري 1917 –1989 ص 102
- المحاضرة الخامسة عشر : مولود معمري .. قصة المثقف و الإتجاه السياسي ص 111
- المحاضلرة السادسة عشر : مولود معمري (الكاتب الذي يحلم بالأفاق المغاربية) ص 116
  - التطبيق الثالث : الربوة المنسية ص 119
  - التطبيق الرابع : الطاهر بن جلون ص124
  - التطبيق الخامس : محمود المسعدي 133